وتتميز قصة الادارسة بالاصالة وتثير الاهتمام . تعود بداية آل الادريسى الى احمد الادريسى الذى ينتسب الى احفاد النبى ، وقد هاجر فى عام ١٧٩٩ من فاس المغربيـة الى مكة حيث اخذ يبشر بتعاليمه فى المدرسة الدينية التى اسسهـا . وبعد زيارة لاحدى اشهر المدارس الدينية فى اليمن بمدينة زبيد عام ١٨٢٩ توقف احمد الادريسى بمدينة الصبية فى عسير ، فاستقر فيها ونقل عائلته من مكة . وذاع صيت الادريسى بسرعة فى الصبية وازداد عدد اتباعه فتشكل منهـم مذهب جديد اطلق عليه اسم مؤسسه «الاحمدية» . وفى عام ١٨٣٧ توفى احمد الادريسى وهو فى السبعين ، وغدا ضريحه مزارا لاتباعه . وصار آل الادريسى بالتدريج من اكثر المتنفذين فى الصبية ثم فى جنوب عسير حيث تسلموا السلطة الدنيوية فضلا عن الدينيـة . وبعد الاحتلال المصرى القصير الذى انتهى فى عام ١٨٤١ نشب بين الادارسة الذين حكموا الصبية واشراف مدينة ابو عريش نزاع من اجل السيطرة على جنوب عسير . وانتصر الادارسة واتسع نفوذهم كثيرا بعد ان شمل ابو عريش . وكان فى مقدمة منافسى الادارسة على السلطة فى عسير شيوخ عايض الذين كانوا يحكمون المنطقة الجبلية الشمالية من عسير وهم فى مركزهم بمدينة ابها (١٢٠ كيلومتـرا عن الصبية) . وفى الفتـرة ١٨٤٩-١٨٧١ استولى العثمانيون مجددا على عسير كلها ، بما فى ذلك ابها والصبية وابو عريش وتهامة الساحلية ، وحولوها الى سنجق ضمن ولاية اليمن . واقامت عايض علاقات ودية مع السلطات العثمانية فعين زعيم هذه العشيرة حسن بن على معاونا للمتصرف العثمانى حاكم عسير . وخلافا لعايض لـم يسكت الادريسيون على السيطرة العثمانيـة فانتفضوا ضد المحتلين مرارا . وزاد ذلك من هيبة حكام الصبية وقوى نفوذهم بين اهالى عسير . وفى مطلع القرن العشرين تزعم الادارسة محمد بن على الادريسى حفيد ابن مؤسس «الاحمدية» . ولد محمد بن على فى ١٨٧٦ بمدينة الصبية . وفى عام ١٨٩٦ انتقل الى مصر حيث تلقى العلم فى الازهر ثم واصل الدراسة عند السنوسيين فى ليبيا . وعاد محمد بن على الى الصبية بعد وفاة والده فى ١٩٠٨ وغدا زعيما للادارسة وامسك بمقاليد السلطة الدينية والدنيوية . وكان سياسيـا فطينا وقديرا . ففى بعض

الحالات كان يستعمل الشدة ، وفى بعضها الآخر يتوسط فـى النزاعات والحروب القبلية التى كانت تنهش عسير ، حتى تمكن من تصفية الخلافات القبلية بالتدريج وبسط نفوذه على اكبر قبائل عسير .

وفى عام ١٩٠٩ استنهض اهالى عسير للنضال ضد السيطرة التركية وركز جهوده على تشكيل جيش قوى انخرط فى صفوفه آلاف المتطوعين . وكما هو حال الامام يحيى اضطلع الادارسة ، ليعززوا مكانتهم ويرفعوا هيبتهم ، بدور المدافعين عن الاسلام الحقيقى ودعوا الى احياء الشريعة .

وتجدر الاشارة الى ان الكاتب العربى المعروف امين الريحانى يقول فى معرض تقييمه لاعمال الادارسة ان تركز السلطة الدينية والدنيوية فى يد محمد الادريسى كان موضع قوة من ناحية ونقطة ضعف من ناحية اخرى ، لان القداسة ، فى رأى الريحانى ، لا يمكن ان تواكب العرش طـول الوقت * . اما نحن فنعتقد بان تركز السلطتين فى يد محمد بن على قد ساعد لدرجة كبيرة ، فى ظروف عسير ، على تقوية نفوذه السياسى مع ان الامام يحيى كان يعتبـره «غريبـا» وكان الاتراك والانجليز ينعتونـه «بالصعلوك» ، بينما وصفه الحسين شريف مكة (وملك الحجاز فيما بعد) بالدعى الذى حط فى ارض لا يحكمها احد ** .

الا ان نجاح الادريسى فى بادئ الامر لا يعود فقط الى اقتران السلطتين الدينية والدنيوية . فمن الاسباب الهامة ظهوره فى عسير فى لحظة حرجة بلغ فيها سخط اهالى المنطقـة على جور المحتلين العثمانيين اوجه وما كانت هبة الاهالى ضد النير الاجنبى تحتاج لاكثر من دفعة صغيرة .

حتى عام ١٩١٠ عززت حكومة تركيا الفتاة مواقعها وواصلت سياسة سابقيهـا الاستعماريـة وشددت استغلال ولايـات

* Rihani A. Around the Coasts of Arabia. London, 1930, p. 168.

** See: Jacob H. Kings of Arabia ..., p. 114; Busch B. Britain, India and the Arabs..., p. 234; Rihani A. Arabian Peak and Desert ..., pp. 234, 241; Survey of international affairs, 1925, vol. 1, p. 288.

الامبراطورية العثمانية . وكان هذا التبدل فى السياسة التركية قد وضع حدا للهدنة الموقتة واستثار موجة جديدة من حركة التحرر الوطنى فى عسير واليمن . ولذا تستبعد الموافقة على رأى بعض المؤرخين القائل بان اشتداد النير التركى وما اعقبه من نهوض النضال التحررى يعودان فقط الى تنحية الوالى «الطيب القلب» فى اليمن عام ١٩١٠ واستبداله بآخر اكثر قساوة منه * .

وفى تشرين الاول (نوفمبر) ١٩١٠ تمكن الادارسة من طرد الاتراك من جميع اراضى عسير تقريبا ، ما عدا مدينة ابها التى حاصرتها قوات الادارسة بقيادة مصطفى الادريسى عم محمد بن على . وبعد حصار دام عدة شهور استسلمت الحامية العثمانية فى ابها ودخل الادارسة هذا المركز الادارى فى عسير . واخذ الادارسة يشكلون فى الاراضى المحررة جهازا لجباية الضرائب وافتتحوا فى موانىء عسير دوائر الجمارك ، علما بانهم فرضوا ضرائب اقل من الضرائب المحددة من قبل الاتراك . وادى ذلك الى تنشيط التجارة الخارجية فى عسير وساعد على ازدياد هيبة محمد الادريسى وازدياد مداخيله ايضا .

وفى نفس وقت الانتفاضة فى عسير تقريبا اشتد الكفاح ضد الاتراك فى اليمن الشمالى . فالمتطوعة الزيديون طردوا الاتراك من قسم كبير من الجبل فى مطلع عام ١٩١١ وحاصروا العاصمة اليمنية صنعاء . وفى البداية كان الامام يحيى يقيم علاقات تحالف مع الادريسى زعيم الانتفاضة فى عسير لوجود عدو مشترك وللنفع الذى يعود به التحالف على كلا الطرفين لان كل طرف يشاغل قسما من القوات العثمانية . ولكن الاختلاف سرعان ما ظهر فى التوجه السياسى للحليفين . فمع ان الزيديين كانوا يحاولون الحصول على السلاح والعتاد من بريطانيا الا انهم يعارضون تدخل دول اوربا الغربية فى شؤون اليمن ، وكان برنامج الحد الادنى بالنسبة لهم هو الحكم الذاتى فى اطار الامبراطورية العثمانية . اما الادارسة فقد اتصلوا بايطاليا واولوا

* See: Ingrams H. The Yemen. p. 61; Faroughi A. Introducing Yemen. New York, 1947, p. 35; Wenner M. Modern Yemen. 1918 — 1966. Baltimore, 1967, p. 46.

اهمية كبيرة فى سياستهم لتعزيز الروابط مع الدول الغربية .

وكان هذا الاختلاف نتيجة للتناقضات القديمة بين سكان الجبل الزيديين والسكان الشافعيين فى تهامة (بجزئيها فى اليمن وعسير) . واساس هذه التناقضات التى اتخذت شكل الخلافات الطائفية هو الفوارق فى الحاجات الاقتصادية الناجمة عن اختلاف الظروف الجغرافية فى اراضى الجبل الخصبة وامطاره الوفيرة ، وفى ساحل تهامة شبه الصحراوى . ولئن كان الاقتصاد العينى هو السائد فى الجبل ، وسكانه يلبون حاجاتهم بالكامل تقريبا ، ما عدا بعض السلع الصناعية ، فان اهالى تهامة الذين يفتقرون الى الاراضى الخصبة ما كان بوسعهم ان يؤمنوا لانفسهم الاغذية الضرورية . وهذا هو السبب فى رغبة اهالى الساحل ، بمن فيهم الادارسة ، فى تطوير التجارة مع الدول الاخرى واقامة صلات وثيقة معها .

كان الزيديون ، بزعامة الامام يحيى ، يرغبون فى ادارة مستقلة للمناطق الزيدية وغير الزيدية والانفراد فى استحصال المداخيل عن طريق مختلف الضرائب . الا ان الادارسة كانوا يعيقون ذلك ويحاولون بسط نفوذهم على المناطق الداخلية لولاية اليمن فضلا عن ساحل البحر الاحمر . وبنتيجة ذلك اخذ الادارسة يتحولون تدريجيا الى خصوم للزيديين بعد ان كانوا حلفاء لهم .

ولم تكن لدى بريطانيا ولا تركيا مصلحة فى تقوية الادريسى وفى التقارب بينه وبين الامام يحيى . وبذلت الاوساط الحاكمة البريطانية والعثمانية قصارى جهدها لتدق اسفينا بين الزعيمين العربيين عن طريق مأموريها امثال سلطان لحج وشريف مكة * .

وحاول الشريف حسين وسلطان لحج فى مكاتباتهما مع الامام يحيى ان يقنعاه بضرورة عقد الصلح مع العثمانيين ، وقد حذراه من ان الباب العالى ارسل الى اليمن قوات كبيرة يمكن ان تدحر

* كان حاكم امارة لحج فى جنوب اليمن مجرد صنيعة لبريطانيا ووسيلة لتطبيق سياستها فى جنوب الجزيرة . اما شريف مكة الحسين فلم يكن راغبا فى دور صنيعة العثمانيين . كان يحلم بان يحكم شخصيا دولة عربية مستقلة تشمل اراضيها ليس الحجاز وحده بل وكذلك المناطق الشاسعة المتاخمة له فى شبه الجزيرة العربية .

الزيديين * . وسرعان ما وصلت الى الحديدة فعلا قوات عثمانية بقيادة عزت باشا ، وزحفت صوب صنعاء وفكت حصارها فى نيسان (ابريل) ١٩١١ بعد ان استمر ثلاثة اشهر .

واضطر الزيديون الى الانسحاب من جديد ، وفى هذا الوضع قرر الامام يحيى وقف الكفاح المسلح ضد تركيا وتوقيع الصلح معها . ولعب دورا كبيرا فى اتخاذ هذا القرار واقع ان النفوذ الدينى لمحمد الادريسى اخذ يجتاز حدود جنوب عسير ويشمل بعض القبائل المقيمة على مقربة من صعدة التى هى القلعة التقليدية للائمة الزيدية . واثار ذلك قلق الامام يحيى ، فرأى فى التعاون مع تركيا التى بقيت لها فى اليمن سلطة اسمية فقط مصلحة اكبر مما فى التعاون مع منافس قوى تؤيده ايطاليا فى تلك الفترة .

كانت تركيا على عتبة الدخول فى حرب ضد ايطاليا التى اخذت تستعد علنا فى ربيع عام ١٩١١ لغزو طرابلس الغرب وبرقة ولذا كانت لتركيا ايضا مصلحة فى الصلح مع الامام يحيى . وشغلت الحرب ضد الزيديين قوات عثمانية كبيرة كانت تتكبد هى الاخرى خسائر جسيمة ، حتى صار اليمن ينعت «بمقبرة الاتراك» ** .

وعندما ادرك الباب العالى عدم جدوى الاستمرار فى محاولات اخضاع القبائل الزيدية المتمردة بادر بمفاتحة الامام يحيى بتوقيع اتفاقية الصلح . وبنتيجة المفاوضات التى بدأت فى ايار (مايو) ١٩١١ تم فى خريف ذلك العام بقرية دعان على مقربة من عمران توقيع الاتفاقية التى دخلت تاريخ اليمن باسم اتفاقية صلح «دعان» *** .

ومنحت الاتفاقية الامام يحيى حق تعيين الحكام الشرعيين فى المناطق الزيدية واستلام الهبات من الزيديين وانتخاب اعضاء محكمة الاستئناف فى صنعاء والاشراف على الاوقاف . كما اشارت الاتفاقية الى جواز قيام الامام بالابانة والشكوى للسلطات التركية

---

* Jacob H. Kings of Arabia . . . , p. 117-118.

** شرف الدين . اليمن عبر التاريخ . . . ، ص ٢٧٠ .

*** Philby H. Arabia. London, 1930, p. 212.

فى اساءة المأمورين والزمت الامام بدفع العشر الى الباب العالى . واعلن فى اليمن عفو عن السجناء السياسيين والغيت الضرائب المتأخرة المستحقة وفرضت الزكاة وفق احكام الشريعة . وتهيأت لرعايا كلا الطرفين حرية التنقل فى البلد * .

ومع ان الاتفاقية اعترفت رسميا بسلطة الامام الدينية فقط فى المناطق الزيدية فقد منحته فى الواقع بعض السلطات الادارية ، وذلك لان الحكام الشرعيين ومدراء الاوقاف الذين يعينهم الامام يشرفون ، بالاضافة الى القضايا الدينية الصرف ، على كثير من المسائل المتعلقة بالحكم فى المناطق الزيدية . واحتفظت تركيا فقط بالسيادة الرسمية على مناطق الجبل الزيدية وبحق شكلى فقط لتوجيه الصلات السياسية الخارجية لتلك المناطق . ومع ان الامام يحيى اعترف بانه تابع للسلطان العثمانى (وصار يتلقى معونة مالية مقابل ذلك ، مثل شيوخ عدد من اكبر القبائل اليمنية) لكنه كان يقيم بصورة مستقلة اتصالات مع الدول الاجنبية حتى بدون ان يبلغ الباب العالى بها ** . وبعد توقيع اتفاقية صلح «دعان» تقلص عدد القوات العثمانية فى اليمن ، ورابط المتبقى منها فى صنعاء وبعض المناطق الشافعية فقط *** .

تعتبر اتفاقية «دعان» من اهم المعالم فى تاريخ اليمن . فقد وضعت ، بالاساس ، حدا للحرب الدموية بين اليمنيين والعثمانيين ، ومع ان كلمتى «الحكم الذاتى» لم تردا فيها فقد اكدت فى الواقع على حق الامام الزيدى بهذا الحكم فى اطار الامبراطورية العثمانية .

وادى وقف العمليات الحربية ضد الاتراك من قبل الامام يحيى فى ايار (مايو) ١٩١١ الى القطيعة التامة بينه وبين محمد بن على الادريسى . فردا على المفاوضات الانفرادية التى اجراها الامام مع تركيا شدد الادريسى عملياته الحربية التى اتجه نصلها هذه المرة ليس ضد العثمانيين فقط ، بل وضد المتطوعة الزيدية **** .

---

* شرف الدين . اليمن عبر التاريخ . . . ، ص ٢٧٠—٢٧١ .

** Rihani A. Arabian Peak and Desert . . . , p. 114.

*** Faroughi A. Introducing Yemen . . . , p. 55.

**** Jacob H. Kings of Arabia . . . , p. 121.

واصدر الامام يحيى بدوره امرا الى قائد القوات الزيدية فى صعدة بالاستعداد لمقاتلة الادارسة ، وارسل له امدادات سرعان ما لحقت بها كتيبة عثمانيـــة بقيادة على روحى . وصار خصوم الامس يتعاونون فى محاربة الادارسة . وبعد ان التقت القوات العثمانية والزيدية فى صعدة ازاحت الادارسة من منطقة الجبل الزيدية واستولت على كمية كبيرة من السلاح والعتاد الايطالى . وقاتل الادريسيين ايضا الحسين شريف مكة الذى طلب منه الباب العالى المعونة . فجمع الشريف حسين متطوعة من قبائل الحجاز على جناح السرعة وزحف فى اتجاه ابها وصد مقاومـــة الادارسة واحتل عاصمة عسير فى تموز (يوليو) ١٩١١ * .

ولم يصمد الادارسة فى وجه قوات تركيا والحجاز والامام يحيى . فقد تكبدوا خسائر جسيمة بعد ان احاط بهم طوق كثيف من تلك القوات الموحدة . ومما زاد فى تعاستهم تفشى وبـــاء الهيضة الذى اودى بحياة الآلاف من افراد القوات الادريسية ** . واضطر الادارسة على الانسحاب الى مناطق عسير الجبلية وترك مواقعهم على ساحل البحر الاحمر . وعندما فقدوا الساحل حرموا من امكانية الحصول على السلاح والعتاد الذى كان يصلهـم من ميناء مصوّع فى اريتريا .

وعندما استرجع العثمانيون القسم الاكبر من الاراضى التى كانت تحت سيطرة الادارسة استولوا على كمية هائلة من السلاح الايطالى واستعدوا لتسديد الضربة النهائية الى الادريسى . الا ان الحرب الايطالية العثمانية التى اندلعت فى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١١ انقذت الادارسة من الهزيمة الماحقة .

كان التقارب بين الادريسى وايطاليـــا ، ناهيك عن تحالفه معها ، يتعارض ومصالح الباب العالى والامام يحيى على حد سواء . ولذا بذلت الدبلوماسية العثمانية قصارى جهدها لشل الادريسى وحاولت ان تغازل «مشاعره الاسلامية» لتوجيهه فيمـا بعد ضد «الطليان الكفرة» . وبعد اسبوعين من اعلان ايطاليا الحرب على تركيا ، بعث والى عسير العثمانى سليمان باشا فى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١١ رسالة الى محمد الادريسى دعاه فيها الى

* Philby H. Arabia . . . , p. 218.

** سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ص ١٨٦ .

محاربة «اعداء الاسلام» واقترح ارسال وفد لتنسيق العمليات المشتركة * . واستجاب الادريسى لهذه الدعوة رأسا ، فهو لا يزال يأمل فى توقيع الصلح مع الباب العالى وبلوغ الحكـم الذاتى ، واعرب عن استعداده للتحالف مع الباب العالى ومحاربة الطليان .

بدا الامر وكأن الحرب الايطالية العثمانية تساعد على توثيق الارتباط بين تركيا والادريسى واقامة علاقات ودية بينهما . فقد كانت لمحمد بن على آنذاك مصلحة فى التصالح مع الباب العالى ، لان القوات الادريسية استنزفت ويمكـن ان يسفر الاستمرار فى الحرب عن هزيمتها الماحقـــة الا ان تركيا كانت تلتزم بموقف مغاير . فهى لا تنوى السكوت على وجود امارة الادارسة . وكانت كل «محاولات» الدبلوماسية العثمانية للتحالف مع الادريسى تلزمها لمجرد ان تكسب الوقت وتـؤجل الى ابعد حد ممكن عقـد تحالف عسكرى بين ايطاليا والادارسة . وعندما ادرك الادريسى نوايا الباب العالى قرر نهائيا ان يواصل التقارب مع ايطاليـا ، فانتهز فرصة وصول السفن الحربية الايطالية الى ميناء جيزان فى عسير واتفق مع الطليـــان بخصوص العمليات الحربية ضد الاتراك وطلب فى مقابل ذلك معونة عسكرية ومالية .

وكان التحالف الايطـــالى الادريسى نافعـــا لكلا الطرفين . فالادارسة الذين كانوا على شفا الهزيمة الماحقة رأوا فى التحالف مع ايطاليا الملاذ الوحيد . اما ايطاليا فمن مصلحتها وجود حليف فى شبه الجزيرة العربية يمكن ان يشاغل قوات كبيرة للعدو .

وحاول الدبلوماسيون الايطاليون ، عن طريق سلطان لحج ، ان يجتذبوا الامام يحيى ايضا الا انه رد عليهم برفض قاطع ** . واستنكر امام الزيدية عدوان الطليان حتى انه اعلن عن استعداده لمساعدة الاتراك بارسال مائة الف من جنده الى شمال افريقيا . بديهى ان نية الامام فى تقديم مثل هذه المساعدة الحربية الكبيرة لتركيا امر مشكوك فيه . فان تصريحه ، فى اغلب الظن ، يتسم

* سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ١٨٦ .

** Jacob H. Kings of Arabia . . . , p. 128; Faroughi A. Introducing Yemen . . . , p. 57.

بطابع دعائى ويهدف الى تبيـــان تمسك الامام بمبادىء النخوة الاسلامية .

ومع ان مشكلة الخلاف فى الحرب الايطالية العثمانيـة هى طرابلس الغرب وبرقة ، حيث نشبت العمليات الحربية الرئيسية ، فقد حاصر الاسطول الايطالى السواحل اليمنية وقصف شيخ سعيد والحديدة ولحيا والصليف وميدى بحجـة الدفاع عـن اريتريا المستعمرة الايطالية فى شرق افريقيا * . وفى الوقت ذاته باشرت القوات الادريسية عملياتها الحربية ضد الاتراك من البر . وقد ازدادت قدرة الادارسة الحربية بعد ان احتلوا مرفأ جيزان الذى تركه الاتراك وغنموا كمية كبيرة من السلاح والذخيرة . وبالاضافة الى ذلك اخذت ايطاليا تقدم الى الادارسة مساعدات مالية وعسكرية بارسال السلاح والذخيرة وبالدعم البحرى من السفن الحربيـة الايطالية ، وذلك بغية تأمين مستلزمات العمليات الحربية ضد العثمانيين فى حوض البحر الاحمر .

وقررت تركيا ان تنتقم من حليف ايطاليا الجديد . ففى عام ١٩١٢ زجت ضد الادارسة بقوات عثمانية حجازية بقيادة فيصل ابن الشريف حسين ورتلين من القوات العثمانية تحركا من صنعاء ولحيا . الا ان الادارسة ، رغم انسحابهم الجزئى فى الاتجاهين الشمالى والغربى ، تمكنوا ، بدعم من الاسطول الايطالى الذى قصف الحاميات العثمانية فى لحيا وميدى وموانىء البحر الاحمر الاخرى ، من ان يدافعو عن مواقعهم فى الجنوب ، بل ويتقدموا الى الامام ، حيث استولـــوا على جزر فرسان وعلى حزام ساحلى عريض يشمل مدينتى ميدى وحرض ** .

وفى سياق الحرب الايطالية التركية استولى الادريسيون على كميات كبيرة من البنادق وحوالى ٥٠ مدفعا . وتعززت المدفعية الساحلية فى موانىء الادريسيين بـ٢٠ مدفعا بعيدة المدى (١٢–١٤ كيلومترا) انتزعت من سفن الحراسة العثمانية . (بالنسبة

* Bury G. W. Arabia Infelix or the Turks in the Yemen. London, 1915, p. 17; Scott T. In the High Yemen. London, 1947, p. 231.

** Bury G. W. Arabia Infelix . . . , p. 35.

للجزيرة آنذاك كان لدى الادريسى تسليـــح قوى للغايـة) . وبالاضافة الى اسلحة الغنيمة استخدم الادريسى المدفعيين الاتراك من الاسرى فى تدريب العرب على المدفعية * .

وبعد ان ربحت ايطاليا الحرب فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ وحولت طرابلس الغرب وبرقـة الى مستعمرة ايطالية ، اوقفت العمليات الحربية فى البحر الاحمر وتركت حليفها الادريسى يواجه من جديد القوات العثمانيـــة ومتطوعة الامـــام يحيى والشريف حسين . وحرم الادريسى من الحماية الايطالية القوية ، الا انه ، رغم تأثر موقفه بسبب ذلك ، لم يلق السلاح وظل يقاتل .

وكانت احوال تركيا نفسهـــا ليست اقل تعقيدا من حال الادريسى . فعلى اثر الحرب الايطالية التركية فـى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٢ اندلعت الحرب التحررية فى دول البلقان (الصرب وبلغاريا واليونان والجبل الاسود) ضد السيطرة العثمانية . وتكبدت القوات العثمانية خسائر جسيمة وانسحبت على عجل تحت ضغط جيوش بلدان البلقان . وفى هـــذا الموقف العصيب قرر الباب العالى توقيع الصلح مع الادريسى ، وفى ايار (مايو) ١٩١٣ عرض عليه معونة مالية شهرية بشرط ان يوقف العمليات الحربية ضد الاتراك ويمتنع عن اى تحالف مع الدول الاجنبية . وكانت شروط الصلح والتحالف التى اقترحتها تركيا مماثلة بالاساس للشروط التى قبل بها الامام يحيى فى عام ١٩١١ ** .

ولكن لئن كانت هذه الشروط فى عام ١٩١١ مقبولـة لدى الادريسى ، فبعد عامين من ذلك ما كان بوسعه ان يقبل بها لان الموقف تغير آنذاك لصالحه . وطرح الادريسى من جانبه شروطا لم يقدم على طرحها حتى الامـام يحيى الاكثر نفوذا . فقد طالب بالحكم الذاتى التام فى اطار الامبراطورية العثمانية وعدم تدخل الاتراك فى الشؤون الداخلية لامارة الادريسى وحق تشكيل قوات مسلحة خاصة به وافتتاح دوائر الجمارك فى موانىء عسير وتوقيع العقود التجارية مع الدول الاجنبية ومنحها الامتيازات *** .

* سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ص ١٩١ .

** NAI, 1913. Return to Hodeidah of the Ottoman mission to Sayed Idrisi. pp. 1-3.

*** Ibid.

وكان تنفيذ هذه المطالب يعنى فى الواقع انه لا يبقى للباب العالى سوى السيادة الشكلية على عسير . بديهى ان تركيا رفضت شروط الادريسى ووافقت فقط على ان يكون قائمقاما فى قضاء الصبية وابو عريش * .

وهكذا اخفقت محاولة الدبلوماسية العثمانية للصلح مع الادارسة ، وظل الطرفان المتعاديان فى حالة حرب ، لكن صدامات حربية كبيرة لم تحدث بينهما .

فما هى حصيلة الكفاح التحررى فى ولاية اليمن قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى ؟ كانت النتيجة الاساسية هى حصول الامامة الزيدية على الحكم الذاتى وقيام العلاقات الودية بين الامام يحيى والسلطات العثمانية . وفى جنوب عسير ، فى سياق النضال المرير الذى تزعمه محمد بن على الادريسى ضد العثمانيين ، نشأت نواة امارة الادريسيين المرتقبة التى قاومتها تركيا والشريف حسين والامام يحيى .

كان حصول امامة الزيدية على الحكم الذاتى فى عام ١٩١١ مرحلة هامة على طريق توحيد القبائل المتنازعة سابقا وتأسيس الدولة اليمنية المستقلة . وكانت الاتجاهات الموضوعية للتطور الاقتصادى فى اليمن تؤدى الى توحيد المشيخات والامارات الصغيرة فى دولة مركزية موحدة . وكلما ضعفت مواقع الامبراطورية العثمانية فى اليمن اشتد الصراع بين مختلف ممثلى التكتلات الاقطاعية من اجل السلطة . الا ان الامام يحيى هو الذى كان قادراً على ان يؤدى مهمة توحيد اليمن . وكان منافسه الرئيسى فى هذا المجال هو محمد الادريسى الذى غدا الصراع معه جزءا من النضال فى سبيل توحيد اليمن فى ظل حكم الزيديين .

٣ . الجزيرة العربية فى الحرب العالمية الاولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ساد ولاية اليمن هدوء نسبى . فالامام يحيى كان يتمتع بالحكم الذاتى الكامل ويستلم

* وهبة حافظ . جزيرة العرب فى القرن العشرين . القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٣ .

مع شيوخ قبيلتى حاشد وبكيل معونات مالية شهرية كبيرة يقدمها الباب العالى مقابل الولاء للسلطات العثمانية * . واضطر الادريسيون ، بعد ان فقدوا تأييد ايطاليا لهم ، ان يوقفوا مؤقتا العمليات الحربية ضد العثمانيين وينتظروا اللحظة المناسبة لانتفاضة جديدة . وظل حكام ابها على علاقاتهم الودية مع السلطات العثمانية . وهيأ هذا الوضع الامكانية لتركيا كى تقلص عدد قواتها فى شمال اليمن الى ٥ آلاف جندى ** .

وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ دخلت الامبراطورية العثمانية الى جانب الكتلة النمساوية الالمانية الحرب العالمية التى لقيت حتفها فيها وتورطت فيها كل الولايات العربية ، بما فيها اليمن .

وكان كبار حكام تركيا يسعون الى الغزو معتبرينه السبيل الوحيد لانقاذ الامبراطورية المتداعية ، والحفاظ على سلطتهم المتزعزعة فى الولايات العربية . وكانت الخطة الاستراتيجية الالمانية العثمانية المغامرة تماما لخوض الحرب ، تنص على الاستيلاء على قناة السويس ومصر وعدن وسيطرة بلدان الحلف الثلاثى على ثغر البحر الاحمر بالاضافة الى غزو ما وراء القفقاس فالقفقاس واسفل الفولغا والقرم وتركستان .

وغدا الشرق الادنى الذى تشابكت فيه مصالح الدول الاستعمارية واحدا من الاهداف الرئيسية لسياسة الغزو التى انتهجتها الكتلتان المتحاربتان .

وسعت الامبريالية البريطانية بالدرجة الاولى الى الاستيلاء على وادى الرافدين وفلسطين ، كما ادعت فرنسا بملكية سورية وقيليقيا . وفى مسرح العمليات الحربية فى الشرق الادنى نشبت المعارك الاساسية فى اراضى شبه جزيرة سيناء ووادى الرافدين والحجاز وفلسطين وشرق الاردن . وحتى نهاية عام ١٩١٤ استولى الانجليز على القسم الجنوبى من وادى الرافدين ، وفى بداية عام ١٩١٥ صدوا بنجاح كل هجمات الاتراك على قناة السويس . وانشغلت قوات كبيرة فى معارك ضارية فى وادى الرافدين

* Rihani A. Arabian Peak and Desert . . . , p. 114.

** سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ص ٢٥٣ .

وشبه جزيرة سيناء ، ولذا لم تتمكن بريطانيا وتركيا من تعزيز قواتهما بقدر يذكر فى جنوب الجزيرة . فقد زيد عدد القوات العثمانيـــة فى ولاية اليمن الى ١٥ الف جندى فقط * . ورغم تعزيز حامية عدن فقد كان عدد افرادها اقل من القوات العثمانية المرابطة فى شمال اليمن . وقرر الطرفان المتحاربان ان يتقاتلا فى اليمن بالقوات العربية المحلية على الاكثر . ودعا علماء الدين العثمانيون الشعوب الاسلامية الى الجهاد فى سبيل تحرير بلدانها من الكفار . الا ان هذه الدعوة لم تحظ فى اليمن ، كما فى سائر الاقطار العربية ، باستجابة متحمسة من جانب المسلمين . وفى سنجق تعز فقط تطوع البعض الى الجيش العثمانى . وقد اعلن الامام يحيى الحياد ، بينما اعلن الادريسى الانتفاضة على الاتراك مجددا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ .

وبذلت الدبلوماسية البريطانية بدورها عدة محاولات لتشكيل ائتلاف مناهض للاتراك من جانب الحكام العرب . ففى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ اعلن شيخ الكويت وشيخ المحمرة بانهما «حليفان للانجليز» مع انهما لم يشاركا مشاركة نشيطة فى الحرب ضد العثمانيين ولم يؤثرا باى حال فى سير العمليات الحربية . واحرزت الدبلوماسية البريطانية اكبر النجاح فى المفاوضات مع ممثلى العائلة الهاشمية فى الحجاز . فبعد اخذ ورد وافقوا على دخول الحرب الى جانب بريطانيا .

وبدا وكأن اول نجاح للانجليز فى اليمن هو توقيع اتفاقية فى ١٩ شباط (فبراير) ١٩١٥ مع الشيخ محمد ناصر مقبل الذى كان قد التزم جانب الاتراك فى النزاع الانكلوعثمانى عام ١٩٠٠ . ومنحت بريطانيا الشيخ مقبل ٧٥ الف روبيه مقابل «طرد الاتراك وحلفائهم ، سواء الشافعيين او الزيديين ، من لواء تعز» وضمنت له الاعتراف بسلطته واستقلاله فى اطار هذه المقاطعة ووعدته بالحمايــة لممتلكاته المرتقبــة من عدوان الدول الغربيــة والعثمانيين ** . ويعنى هذا القرار ان الانجليز كسبوا حليفا

* Rihani A. Around the Coasts of Arabia . . . , p. 338.
** NAI, 1915. Situation in the Aden Hinterland, Yemen and the Red Sea. No 105.

جديدا بل وفرضوا سيطرتهم على واحدة من اكثر مقاطعات اليمن خصوبة بعــد ان كانت ، وفق مقررات اللجنــة الحدوديــة الانكلوعثمانية ، خارج منطقة النفوذ البريطانى . وفى بادئ الامر كانت السلطات الاستعمارية البريطانية تنوى ارسال قوات الى الضالع لدعم «حليفها» الشيخ مقبل ، الا انها صرفت النظر عن هذه العملية منذ آيار (مايو) ١٩١٥ . وعندما اعلن نائب ملك الهند عن هذا القــرار صرح «بان مكانة بريطانيــا تتوقف على الانتصار فى مسارح الحرب الاساسيــة ، وليس على التظاهرات الموضعية» * . ولم يحصل الشيخ مقبل على دعم الانجليز ففر مع اخوانــه الى الجنوب والتحق قسم من متطوعته (٨٠٠ شخص) بالقوات العثمانية التى استولت على الضالــع فى ايار (مايو) ١٩١٥ ** .

وفـــى نفس وقت المفاوضات مــع الشيخ مقبــل اجرى الدبلوماسيون الانجليز مفاوضات مع الادريسيين الذين باشروا آنذاك بعمليات حربية مستقلة ضد العثمانيين . ووافق الادريسى على الدخول فى تحالف مع بريطانيا حتى انه تقدم بخطته الخاصة لخوض العمليات الحربية . وفى ١٥ اذار (مارس) ١٩١٥ اشار المقيم البريطانى فى عدن فى تقرير سرى الى الادارة الانكلوهندية الى ضرورة «عدم تفويت هذه الفرصة الذهبية» وتوقيع اتفاقية مع الادريسى . وكتب المقيم يقول : «ان سياستنا فى تصفيــة النفوذ العثمانى فى الاقطار العربية يمكن ان تخفق اذا لم نقدم الدعم الى الزعمــاء العرب . ويمكـــن ان يؤدى ذلك الى وقوع الادريسى من جديد فى ايدى الطليان» *** .

وفى ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٥ وقعت بريطانيا اتفاقية مع محمد الادريسى نصت على التزام الاخير بان يقاتل الاتراك فى اليمن ويوسع اراضيه على حسابهم ، ولكن يتوجب عليه فى الوقت ذاته ان يمتنع عن الاعمال العدائية ضد الامام يحيى بشرط الا يتحالف هذا الاخير مع الاتراك . وكانت بريطانيا تريد من هذا

* Ibid., No 145.
** Ibid., No 148.
*** Ibid., No 114.

الاستدراك ان تبقى الامام محايدا لتجتذبه فيما بعد الى جانبها . والتزمت الحكومة البريطانية بدورها بتقديم المساعدة الى الادارسة من جهة البحر وضمان استقلال اراضيهم ووعدت بالتوسط فى تسوية الخلافات بين الادريسى والامام يحيى بعد انتهاء الحرب . وكان من البنود الاساسية فى الاتفاقية التزام بريطانيا بتزويد الادارسة بالسلاح والمال وتوفير حرية التجارة والملاحة لهم من خلال موانىء عسير . وتفيد مواد الارشيف الوطنى الهندى ان جدلا ثار بين الاوساط الاستعمارية البريطانية بشأن بعض بنود الاتفاقية بعد توقيعها . ويقدم تحليل هذا الجدل فكرة اوضح عن المهمات الملموسة التى وضعتها الامبريالية البريطانية نصب عينها فى سياستها فى اليمن .

فقد تناول كتاب السلطات الانكلوهندية الى وزير شؤون الهند البريطانى ، بالاضافة الى طلب تصديق هذه الاتفاقية ، بعض نقاط الضعف فيها ، مثل البند السادس الذى يعلن برياء «ان الحكومة البريطانية لا تسعى الى توسيع رقعتها فى الاراضى العربية ، بل تريد فقط للحكام العرب ان يعيشوا فى وئام وسلام ، كل فى اراضيه» * . واشار الكتاب الى «ان الاتفاقية رغم توقيعها يجب ان تتضمن صيغة «غرب الجزيرة» بدلا من صيغة «الاراضى العربية» لان الصيغة الاخيرة تهدد مصالح بريطانيا فى بلاد الرافدين» حيث كانت قائمة آنذاك معارك ضارية بين القوات البريطانية والعثمانية ** .

وروعيت هذه الملاحظة فيما بعد ايضا فى الكتاب السرى الذى بعثه وزير شؤون الهند الى نائب ملك الهند وافاد فيه انه تم فى الاتفاقية مع الادريسى «استبدال الصيغة المذكورة اعلاه وجرى ذلك ليس بسبب وادى الرافدين فقط ، بل وخصوصا بسبب شيخ سعيد الذى يجب ضمه بعد انتهاء الحرب» *** . وكانت الاوساط الاستعمارية البريطانية تنوى تبرير ضم رأس شيخ سعيد لانه ، فى رأيها ، يقع فى جنوب الجزيرة وليس غربيها .

---

* Ibid., No 151.
** Ibid., No 115.
*** Ibid., No 178.

ولدى مناقشة الاتفاقية مع الادريسى اشار الساسة البريطانيون الى «ان السماح للادريسى فى البند الثالث من الاتفاقية بتوسيع اراضيه ، وضمان استقلاله فى الوقت ذاته بموجب البند الخامس يجعلاننا فى موقف حرج بالنسبة للزعماء العرب الباقين ، الا ان موقفنا فى هذه المسألة مشروط باستدراك يقول ان توسع اراضى الادريسى سيتم على حساب الاتراك واذا دخل الادريسى بسياسته العدوانية فى المستقبل فى نزاع مع الزعماء العرب الآخرين فيمكننا ان نذكره بهذا الشرط ونتنصل عن اية مسؤولية عن افعاله» * .

ويتضح بكل جلاء مما قيل اعلاه ان بريطانيا عندما وقعت الاتفاقية مع الادريسى كانت تعول على اشتداد حدة التناقضات بين الامام يحيى والادارسة . فالنزاع المدبر بهذه الصورة من شأنه ان يتفق تماما مع مصالح المستعمرين البريطانيين ويستجيب لسياستهم القديمة ، سياسة «فرق تسد» .

ويستنتج من نص الاتفاقية ان بريطانيا تخشى من تعزز مواقع الامام يحيى وما كان بوسعها ان تتجاهله ، ولهذا حاولت ، كما كتب المقيم البريطانى فى عدن ، «ان تتحاشى فى المفاوضات مع الادريسى كل ما يمكن ان يجعل الامام يشيح بوجهه عن بريطانيا» ** . كان المضمون الرئيسى للاتفاقية هو عقد تحالف عسكرى مع الادريسى ، ولذا اقترح الساسة البريطانيون جعل الاتفاقية سرية وعدم نشرها فى مجموعة الاتفاقيات بين بريطانيا وبلدان وحكومات الجزيرة العربية *** . ولم ينشر النص المصحح ، الذى استبدلت فيه العبارة المذكورة اعلاه ، فى هذه المجموعة الا فى عام ١٩٣٠ **** .

وحاولت الدبلوماسية البريطانية مرتين – فى اواخر عام ١٩١٤ وفى آب (اغسطس) ١٩١٥ – ان تجر الزيديين الى الحرب ضد الاتراك ووعدتهم فى مقابل ذلك ان تعترف باستقلالهم ، الا

---

* Ibid., No 151.
** Ibid., No 149.
*** Ibid.
**** Aitchison C. U. A Collection of Treaties ..., vol. 13, p. 177.

ان الامام يحيى التزم بالحياد طوال فترة الحرب ، ولم يشارك جنده فيها . وكانت سياسة الحياد فى الحرب العالمية هى الاكثر قبولا لدى الزيديين ، لان المنطقة الجبلية فى اليمن كانت بعيدة عن المعارك ولم تترك الحرب اثرا الا فى توقف التبادل التجارى مع العالم الخارجى نهائيا فى الواقع بسبب حصار السواحل اليمنية من قبل الاسطول البريطانى . وقرر الامام يحيى ان يحافظ على قواته وينتهز الفرصة السانحة ليوحد كل اراضى اليمن فى ظل حكمه .

وهكذا لم يتحالف احد مع بريطانيا فى جنوب الجزيرة ما عدا الادريسى . وقد حصل فى بادئ الامر على معونة مالية قدرها ٢٥ الف روبيه واسلحة بمبلغ ٣٠ الف روبيه ، فقام فى حزيران (يونيو) ١٩١٥ بمحاولة للاستيلاء على مرفأ لحيا . ولكن هذه المحاولة اخفقت رغم دعم الاسطول البريطانى * . وفى نفس الشهر استولت قوات الانزال البريطانية على جزيرة كمران الهامة من الناحية الاستراتيجية والمشرفة على مداخل الساحل اليمنى ، كما احتلت القوات العثمانية من جديد مواقع فى رأس شيخ سعيد كانت قد غادرتها فى اواخر عام ١٩١٤ بعد قصفها من جانب السفن البريطانية ** . وفى الوقت ذاته شرع العثمانيون بهجوم فى اعماق الامارات الواقعة تحت الحماية البريطانية . وفى بادئ الامر طلب شيوخ قبائل حوشبى وفضلى ويافع وامارة الضالع المساعدة والسلاح من سلطات عدن ، لكن طلبهم رفض ، فاخذوا ينتقلون الى صف الاتراك *** .

وحتى فى هذا الموقف الحرج لم يقدم المستعمرون البريطانيون على تسليح قبائل اليمن الجنوبى التى لم تكن تبدى ولاء كبيرا لبريطانيا . وبالنتيجة وصل الفان من الجنود العثمانيين واربعة آلاف من متطوعى هذه القبائل دون عائق الى عاصمة سلطنة لحج (مدينة لحج واسمها القديم الحوطة) واخمدوا مقاومة

* NAI, 1915. Situation in the Aden Hinterland, Yemen and the Red Sea. Notes, No 108.
** Busch B. Britain, India and the Arabs ..., pp. 227-228.
*** Aitchison C.U. A Collection of Treaties ..., vol. 13, p. 2.

الحامية المحلية واستولوا على المدينة فى ٥ تموز (يوليو) ١٩١٥ * .

وادركت سلطات عدن بعد فوات الاوان مدى الخطر الداهم . وجمع الانجليز قوات غير كبيرة فى عدن وزجوا بها فى المعركة لنجدة سلطان لحج ، الا ان القوات العثمانية بالتعاون مع متطوعة القبائل دحرت هذه الامدادات المتأخرة واحتلت ضاحية عدن ، شيخ عثمان ، فى ٧ تموز ** . وما كان بوسع الاتراك طبعا ان يحتلوا عدن بمثل هذه القوة القليلة . فان حامية عدن القوية بدعم من السفن الحربية البريطانية وبالتعاون مع الامدادات الكبيرة التى وصلت لهذا الغرض ازاحت الاتراك من المناطق المتاخمة لعدن وجعلتهم ينسحبون الى عاصمة لحج . وظل توزيع القوى على هذه الصورة فى هذه الجبهة حتى نهاية الحرب . ونشأت بين القوات العثمانية فى لحج والقوات البريطانية فى عدن هدنة غير معلنة استمرت حوالى ثلاثة اعوام ونصف . وبلغ الامر بالطرفين المتحاربين الى حد التبادل البضاعى العينى . فقد مارس الجنود العثمانيون فى لحج الزراعة وصاروا يزودون عدن بالخضار والفواكه مقابل السكر والسجائر *** . ورغم وجود الاتراك فى لحج لم ينقطع التبادل التجارى بين المناطق الداخلية وعدن ولم ينخفض حجمه ابدا الى اوطأ من نصف المستوى المتوسط لما قبل الحرب **** .

كانت الهدنة التى حلت فى اراضى محمية عدن مناسبة تماما للانجليز ، لان مهمتهم الاساسية فى جنوب شرقى حوض البحر الاحمر هى السيطرة على مضيق باب المندب وعدن . وكانت وزارة الحربية البريطانية تدرك ان نتيجة الحرب تتقرر فى المسارح الاساسية للعمليات الحربية ، ولذا لم تكن تنوى اشغال قواتها فى جبهة الاطراف فى اليمن ، فلم تقم بأية محاولة جدية لزحزحة الاتراك من امارات المحمية ***** .

* Rihani A. Around the Coasts of Arabia ..., p. 340.
** Gavin R. J. Aden under British rule ..., p. 249.
*** Rihani A. Around the Coasts of Arabia ..., p. 340.
**** Gavin R.J. Aden under British Rule ..., p. 249.
***** Ibid.

وجرى التعويض عن سياسة بريطانيا الخاملة حسب الظاهر فى جنوب الجزيرة بعوامل اخرى مثل انتفاضة الحجاز التى اندلعت فى حزيران ١٩١٦ وجهد المستعمرون البريطانيون لتوجيهها فى مجرى مصالحهم السياسية . ونتيجة لعمليات ثوار الحجاز الذين ايدتهم بريطانيا انقطعت القوات العثمانية فى عسير واليمن بالكامل عن قواتها الاساسية ، ولذا لم تعد تشكل خطرا جديا على عدن .

وبعد توقيع اتفاقية سايكس – بيكو الانكلوفرنسية السرية (ايار ١٩١٦) بشأن اقتسام ممتلكات الاتراك العربية غدا هدف الاستراتيجية البريطانية فى جنوب شرق حوض البحر الاحمر ليس مقاومة القوات العثمانية المرابطة فى هذه المنطقة ، بل على الاكثر الحيلولة دون احتمال تسرب دول اوربية اخرى الى شبه جزيرة العرب .

وكانت ايطاليا المنافس الاكثر احتمالا لبريطانيا فى هذا المجال . فان ايطاليا دخلت الحرب الى جانب دول الوفاق فى ايار (مايو) ١٩١٥ . وبموجب معاهدة لندن ١٩١٥ التى وقعتها بريطانيا وفرنسا وروسيا من جهة ، وايطاليا من جهة اخرى ، حصلت هذه الاخيرة ، مقابل خروجها من الحلف الثلاثى على وعود بمناطق شاسعة فى شمال الادرياتيك (تريسته وايستريا ودلماشية الشمالية وفالونا وقسم من البانيا وجزر دوديكانيز وكثير غيرها) . ووافق الحلفاء على منح ايطاليا «جزءا مكافئا من مناطق البحر الابيض المتوسط المتاخمة لمنطقة اداليا فى حالة اقتسام تركيا الآسيوية فيما بينهم كليا او جزئيا» . ووعدوا الامبريالية الايطالية كذلك بانهم سيعترفون من حيث المبدأ ، اذا كانت ممتلكات فرنسا وبريطانيا فى افريقيا ستزداد على حساب المانيا ، بحق ايطاليا فى المطالبة بتعويضات مماثلة على حساب المستعمرات البريطانية والفرنسية المتاخمة لاريتريا وليبيا والصومال * .

الا ان عددا من الاعمال ، مثل غزو الانجليز لجزيرة كمران واحالة جزر فرسان الى الادريسيين فى بداية عام ١٩١٧ ومحاولة

* مجموعة معاهدات روسيا مع الدول الاخرى . ١٨٥٦–١٩١٧ ، موسكو ١٩٥٢ ، ص ٤٤٠–٤٤١ .

التحالف مع الامام يحيى ، كان موجها ضد ايطاليا اكثر مما هو ضد تركيا مع ان ايطاليا غدت حليفة لدول الوفاق . فان الساسة البريطانيين كانوا يتطلعون ببعد نظر وقد لاحظوا دلائل سقوط الامبراطورية العثمانية ودلائل الصراع من اجل مناطق النفوذ فى شبه جزيرة العرب . وكان من العمليات الوقائية ضد الطليان استخدام قوات الادريسى فى احتلال ميناء القنفذة الحجازى . فبعد قصف هذا الميناء من جانب السفن البريطانية قام الانجليز بانزال بحرى مكون من قوات الادريسى . ومع ان الادارسة هم الذين حرروا المدينة المذكورة من الاتراك فان الانجليز سرعان ما خملوهم على الجلاء وسلموا القنفذة الى القوات الحجازية التى وصلت بقيادة الشريف حسين * .

وهكذا استخدم الانجليز الادارسة بالاساس ليس لغزو القنفذة بل كوسيلة تحول دون تدخل ايطاليا المحتمل فى العمليات الحربية فى الحجاز . وكان لمخاوف الانجليز من تدخل ايطاليا ما يبررها . فان ايطاليا عندما دخلت الحرب صارت تطالب بالمشاركة فى عمليات الحجاز لانها تعتبر نفسها «دولة عمرانية اسلامية لها مصالح معينة فى البحر الاحمر» * * .

ولم ينتظر الطليان موافقة بريطانيا فقرروا ان يستعيدوا بانفسهم صلاتهم القديمة مع الادارسة فارسلوا لهم مدافع نقلتها سفينة حربية ايطالية الى عسير . واثار هذا التدخل فى شؤون الجزيرة العربية احتجاجا شديدا من جانب بريطانيا جعل ايطاليا تعد بالامتناع فى المستقبل عن اية عمليات فى الجزيرة . ومع ان محمد الادريسى استاء من تصرف بريطانيا غير المهذب ، فقد استمر على تعاونه مع الانجليز ووسع لدرجة كبيرة قبيل نهاية الحرب الاراضى التى يسيطر عليها . وبموجب اتفاقية ٢٢ كانون الثانى (يناير) ١٩١٧ اعترفت بريطانيا بان جزر فرسان داخلة ضمن ممتلكات الادريسى وذلك مقابل التزامه

* فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦ استعاد العثمانيون القنفذة ولم تحررها قوات الشريف حسين من جديد الا فى ايار (مايو) ١٩١٩ (ملاحظة المؤلف) .

* * Busch B. Britain, India and the Arabs . . . , p. 241.

بعدم تسليمها الى دولة اخرى * . وفى ١٨ شباط (فبراير) ١٩١٧ احتل الادريسى بدعم من الاسطول البريطانى ميناء لحيا ثم زحف الى الجنوب حتى الزيدية .

وحتى منتصف عام ١٩١٧ تم تحرير عسير ، ما عـدا بعض النقاط ، من الاتراك . وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى صار الادريسيون ، الذين كانت سلطتهم محصورة فى مناطق الصبية سابقا ، يسيطرون على اراض ساحلية شاسعة تمتد من مدينة البرك حتى الزيدية ** .

وشعر الامام يحيى بالقلق من تعزز الادارسة وضعف مواقع العثمانيين فى شبه الجزيرة العربية بسبب انتصارات انتفاضة الحجاز وعمليات القوات البريطانية فى وادى الرافدين وفلسطين . وفى تموز (يوليو) ١٩١٧ بادر الى استئناف المفاوضات مع سلطات عدن فى محاولة للتحالف مع بريطانيا . علما بان الامام يحيى طالب ، فى مقابل هذا التحالف ، بالحصول على السلاح والمال والعتاد والاعتراف بسيادتـه على الاراضى الممتدة من الرأس الخالى (٦٠ كيلومترا عن القنفذة) حتى حضرموت ضمنا . ووافق الامام على ترك عدن والمناطق المتاخمة لها للانجليز . واستمرت المفاوضات اكثر من عام دون ان يتوصل الطرفان الى اتفاق . ولم تقبل سلطات عدن بشروط الامام يحيى ورفضت تزويد الزيديين بالسلاح . *** .

وتجدر الاشـــارة الى ان بعض المؤرخين الغربيين الذين يصورون المستعمرين البريطانيين اناسا افاضل مهتمين بمصير العرب انما يزعمون بان بريطانيا رفضت مطالب الامـام يحيى لسبب واحد هو ان فى تلك المطالب هضما لحقوق الادريسيين حلفاء بريطانيا . اما فى الواقع فان المستعمرين البريطانيين لم

---

* Aitchison C. U. A Collection of Treaties ..., vol. 13, pp. 178-179.

** Macro E. Yemen and the Western World. 1571-1964. London, 1968, p. 46.

*** NAI, File No 134, 1923. Report on the Middle East Conference held in Cairo and Ierusalem 26-30 March 1921. Appendix 26, annex. 2, pp. 177-180.

يعودوا آنذاك فى حاجة ماسة الى التحالف مع الامام ، لا سيما وان تنفيذ مطالبه يعنى تضييع كل الامارات والمشيخات الواقعة تحت الحماية البريطانية ، اى تضييع ما يسمى بالمناطق الداخلية التى تؤدى دور المنطقة العازلة لحماية عدن من جهة البر وتمونهـا بالاغذية .

وهكذا ظل الزيديون محايدين حتى نهاية الحرب ولم يشاركوا فى العمليات الحربية .

وفى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ وقع ممثلو الباب العالى اتفاقية الهدنة فى مدينة مدروس ، وقد نص البند السادس عشر من الاتفاقية على استسلام جميع القوات العثمانية وتصفية الادارة التركية تصفية تامة فى لبنان وسورية وفلسطين والعراق والحجاز وعسير واليمن . ووضعت القوات العثمانية المرابطة فى لحج السلاح وسلمت نفسها الى السلطات فى عدن ، الا ان قسما من القوات العثمانية بقيادة والى اليمن السابق محمود نديم بك (حوالى ٨٠٠ شخص فقط) رفض الاستسلام للانجليـــز والتحق بقوات الامام يحيى * .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨ دخل الامام يحيى العاصمة صنعاء مظفرا ، فقد اعترف به محمود نديم رسميا بوصفه الوريث الشرعى للادارة العثمانية ** . ولم يخف الامام يحيى نيته فى توحيد اليمن كله ، بما فيــه المناطق الواقعة تحت الحمايـــة البريطانية ، فاعلن للسلطات فى عدن بانه لا يعترف بالاتفاقيات التى وقعتها الادارة العثمانية مع بريطانيـــا (ولا سيما معاهدة ١٩١٤ الانكلوعثمانية التى صادقت على الحدود بين ولايـــة اليمن ومحمية عدن) . كما رفض الامام يحيى اتفاقيات الحماية التى فرضتها بريطانيا على امارات جنوب اليمن *** .

ولم يكن المستعمرون البريطانيون راضين اطلاقا بتأسيس الدولة اليمنية المستقلة بزعامة الامام يحيى . ومنذ الايام الاولى بعد الحرب قاموا بمحاولات لعرقلة توحيد اليمن . فقد تذرعت

---

* سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ص ٢٣٦ .

** Ingrams H. The Yemen ..., p. 63.

*** NAI, 1921, Yemen affairs, encl. to No 317.

بريطانيا باستسلام القوات العثمانيـــة غير الكامل فى اليمن واحتلت فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ الساحل اليمنى من لحيا حتى الحديدة التى هى اكبر ميناء فى اليمن الشمالى يجرى من خلاله الجزء الاساسى من التداول التجارى الخارجى للبلد . وسلم الانجليز لحيا الى الادريسيين ، بينمـــا ظلت الحديدة تحت السيطرة البريطانية .

وكان احتلال القوات البريطانية لمينـــاء الحديدة قد حرم المناطق الداخلية فى اليمن من المنافذ الى البحر الاحمر وقطع صلاتها التجارية التقليدية مع العالم الخارجى . وواجه البلـد وضعا اقتصاديا عصيبا . فقد حرمت الحديدة من مؤخرتها الداخلية الطبيعية ، كما عزلت المناطق الجبلية اليمنية عن اهم مينـاء لها . وتقلص عدد اهالى الحديدة الى ١٠ آلاف نسمة بعد ان كان قبل الحرب ٣٠ الفا . وشلت التجـارة التى كانت مزدهرة فى حين من الزمان .

وهكذا فرغم تصفية السيطرة العثمانية على الحجاز وعسير بنتيجة الحرب العالمية الاولى لم يؤد ذلك الى استقلالهما ، لان السيطرة البريطانية حلت فى الواقع محل السيطرة العثمانية . وبموجب شروط اتفاقية ١٩١٥ الانكلوسعودية غدت دولة امير نجد ابن سعود فى تبعية لبريطانيا . وخضعت امارات الخليج العربى بالكامل لبريطانيا فى سياق الحرب العالمية الاولى .

ولم يحرز الاستقلال شكليا من بين كل الاقطار العربية الا اليمن الشمالى ، لكن اليمانيين المطوقين باتباع بريطانيا اضطروا امدا طويلا للنضال من اجـل توحيد بلدهم واحراز الاستقلال التام .

الفصل الثانى

اليمن فى مخططات التوسع البريطانى فى الجزيرة العربية خلال العشرينات

١ . سياسة بريطانيا الاستعمارية فى اليمن حتى منتصف العقد الثالث من القرن العشرين

ما ان انتهت الحرب العالمية الاولى حتى بدأ الصراع بين الحلفاء من دول الوفاق من اجل اعادة اقتسام العالم والمكاسب الاقليمية الافضل . وكانت الدول المغلوبة : المانيا والنمسا – المجر وبلغاريا وتركيا تنتظر مصيرها الذى كان ستقرره الدول الغالبة فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس (١٩١٩–١٩٢٠) . الا ان تناقضات عميقة بين الحلفاء تجلت على طاولة المفاوضات . فكل بلد من الحلفاء يريد ان يحصل من النصر على اكبر قدر من الامتيازات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية .

ومع ان الحرب ضعضعت القدرة الاقتصادية والمالية لبريطانيا فان الامبرياليين الانجليز كانوا يأملون فى التعويض عن ذلك باستغلال المساحات الشاسعة التى استولوا عليهـــا فى سياق الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى وافريقيا . وبالاضافة الى الاراضى المحتلة عمل الامبرياليون البريطانيون بحجة حمايـــة «ميادين النفوذ البريطانى» من اجل الهيمنة على الاراضى التى تتسم بأهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة ، لكن القوات البريطانية لم تكن قد احتلتها . وابدى الانجليز اهتماما خاصا من هـــذه الناحية بالجزيرة العربية .

وقد وردت المبادئ الاساسية لسياسة بريطانيا بعد الحرب فيما يخص حكام الجزيرة فى البرقية التوجيهية التى بعثتها وزارة الخارجية البريطانية فى ٩ تموز (يوليو) ١٩١٩ الى الجنرال اللنبى المندوب السامى فى مصر ، وتتلخص هذه المبادئ فيما يلى :

«١ – تضطلع بريطانيا بدور التحكيم فى جميع الخلافات بين حكام الجزيرة ، ٢ – وتدافع عنهم دون الهجوم الخارجي ، ٣ – وتتمتع بحق مراقبة علاقاتهم الخارجية ، ٤ – وبدون موافقة بريطانيا لا يجوز منح الاراضى والامتيازات للاجانب» . وجاء فى تلك البرقية ان الوفد البريطانى فى مؤتمر الصلح فى باريس ينوى ادراج هذه المبادىء ضمن المعاهدة مع تركيا بغية اضفاء الشرعية على حقوق بريطانيا فى الجزيرة العربية والحيلولة دون دخول الدول الغربية الاخرى الى هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة * .

واقترحت الادارة البريطانية فى مصر برئاسة اللنبى السعى فى مؤتمر الصلح الى الحصول على حق الانتداب فى الجزيرة العربية كلها ، وبضمنها نجد وعسير واليمن ** . حتى ان وزارة المستعمرات البريطانية اعدت مسودة معاهدة مع تركيا يتعلق الفصل الثامن منها بالجزيرة العربية . ونصت هذه المسودة على ان تعترف بلدان مؤتمر باريس «بالمصالح السياسية الخاصة لبريطانيا فى الجزيرة العربية والجزر المتاخمة لها» وتتخلى عن اية حيازات اقليمية وتكف عن محاولة بسط نفوذ تلك البلدان فى المنطقة «البريطانية» . وابدت المسودة اهتماما خاصا بجزيرة كمران التى يتعين على الحلفاء ان ينيطوا ادارتها رسميا ببريطانيا *** .

وفى كتاب الى وزير شؤون الهند قال ممثلو السلطات الانكلوهندية «ان سياسة حكومة صاحب الجلالة بعد الحرب . . . تمليها النية فى منع الدول الاجنبية الاخرى من الحصول على نقاط ارتكاز فى الجزيرة العربية والنية فى ملء الفراغ السياسى الناشيء عن طرد العثمانيين من الجزيرة» **** .

واثارت مخططات بريطانيا التوسعية مقاومة شديدة من جانب الدول الغربية ، ولاسيما فرنسا وايطاليا اللتان لم ترغبا فى

* NAI, 1921 Jemen affairs, No 217.

** Ibid.

*** NAI, 1920. Administration of the Camaran Island, pp. 12-13.

**** NAI, File 492-x of 1923. Treaty negotiations with the Imam of Yemen. Question of altering the boundary of Aden Protectorate No 63.

التخلى عن المشاركة فى استثمار الجزيرة العربية . واضطر ذلك كله الدبلوماسية البريطانية الى الاستعجال فى المبادأة بملء «الفراغ السياسى» فى اليمن . واتخذت لندن قرارا عاجلا بارسال بعثة بريطانية الى صنعاء برئاسة الكولونيل جاكوب الذى كان آنذاك مستشارا للمندوب السامى فى مصر لشؤون الجزيرة العربية . ويتلخص هدف البعثة ، اولا ، فى تأكيد اولوية بريطانيا على الدول الامبريالية الاخرى فى العلاقات مع حكام الجزيرة ، وثانيا ، فى تمهيد التربة لتوقيع اتفاقية انكلويمنية تجعل اليمن ميدانا للنفوذ البريطانى .

وسبقت مهمة جاكوب فى صنعاء مناقشات طويلة للمسائل التى ينتظر ان تطرح على امام اليمن . فقد اقترح المندوب السامى فى القاهرة اللنبى والمقيم البريطانى فى عدن الجنرال ستيوارت رسم الحدود بالقوة بين اراضى الامام يحيى واراضى الادريسى ، الامر الذى كان سيؤدى الى عزل المناطق الداخلية فى اليمن نهائيا وبصورة رسمية عن منافذ البحر ويحول دون نشوء الدولة اليمنية المركزية .

وكان ستيوارت وجاكوب يعتقدان ان الامام يحيى يمكن ترويضه بسهولة اعتمادا على «الحافز المالى» . وكتب المقيم البريطانى فى عدن بوقاحة ان «بالامكان حمل الادريسى ويحيى على تنفيذ كل رغباتنا اذا سمعا رنين نقودنا» * .

وتتميز بقيمة كبيرة بهذا الخصوص المسودة السرية للاتفاقية مع الامام يحيى ، وهى المسودة التى بعثها اللنبى الى لندن لتنظر فيها الحكومة البريطانية ** . وتجدر الاشارة الى ان مؤلفات المؤرخين السوفييت والغربيين والعرب لم تذكر حتى الآن شيئا عن وجود هذه المسودة ، فى حين يقدم تحليلها فكرة واضحة عن المخططات الحقيقية للمستعمرين البريطانيين ازاء اليمن ويساعد على فضح محاولات الموظفين الاستعماريين آنذاك والمؤرخين الغربيين لتزويق سياسة بريطانيا الاستعمارية فى جنوب الجزيرة العربية .

* NAI, 1921, Yemen affairs, No 214.

** Ibid., notes No 323.

وبموجب هذه المسودة وافقت بريطانيا على «ضمان استقلال اليمن دون الحاق ضرر بالاشخاص الذين ترعاهم بريطانيا» * . ويعنى ذلك ان بريطانيا تعترف للامام يحيى بالقسم الجبلى من اليمن فقط ، وهو قسم معزول فى الواقع عن المنافذ البحرية الموجودة فى اراضى الادريسى ومشايخ اليمن الجنوبية الموالين لبريطانيا والذين قبلوا بالحماية البريطانية . علما بان بريطانيا كانت تؤمل فى الحصول على موافقة رسمية من الامام يحيى لرسم حدود ممتلكاته .

ووافقت بريطانيا على منح اليمن حرية التجارة عبر ميناء الحديدة ، عندما يسمح الموقف الحربى بذلك فقط . وكان بوسع بريطانيا ان تستفيد دوما من هذا الاستدراك وتمارس الضغط على الامام يحيى ، لان السيطرة على تجارة اليمن الخارجية تعنى فى الواقع السيطرة على مجمل اقتصاد البلاد الذى يواجه صعوبة كبيرة اذا انعدمت صلاته بالعالم الخارجى . ونصت مسودة المعاهدة على حصول بريطانيا على امتيازات مد السكك الحديدية وانشاء المشاريع الاقتصادية الاخرى فى اليمن ، والزام الامام بان يقيم العلاقات مع الحكومة البريطانية فقط ولا يقدم او يبيع اى جزء من اليمن الى دولة اخرى. ومنعت المسودة الامام من استيراد السلاح ، وإذا دعت الحاجة الى السلاح عليه ان يطلبه من الحكومة البريطانية فقط . وكان هذا الشرط يخفى نية بريطانيا فى اضعاف القدرة العسكرية لليمن والهيمنة عليه بالكامل .

وكانت شروط مسودة الاتفاقية لا تسمح للامام يحيى باستخدام الاجانب الا بموافقة الحكومة البريطانية . وكان هذا البند موجها ، كما هو واضح ، ضد الوالى العثمانى السابق فى اليمن نديم بك والـ٨٠٠ تركى الذين ظلوا فى خدمة الامام . كانت الادارة فى عدن قلقة من نشاط نديم بك المعادى لبريطانيا وصارت تبحث عن وسيلة لتنحيته . ونصت المسودة على ان تلتزم بريطانيا بتقديم معونة مالية شهرية للامام بشرط ان يؤدى واجباته ** .

* Ibid.

** Ibid.

وردا على استجواب وزير شؤون الهند الى الحكومة الانكلوهندية بخصوص هذه المسودة اعلنت الحكومة المذكورة عن موافقتها . واقترحت هذه الحكومة التى تشرف مباشرة على محمية عدن ان يضاف الى الامتيازات الواردة فى المسودة امتياز مد خط التلغراف * .

ومن الادلة على سعى بريطانيا لاستخدام اليمن من الناحية الاقتصادية ، فضلا عن الناحيتين السياسية والاستراتيجية ، التقرير السرى الذى بعثه المقيم البريطانى فى عدن الى وزارة المستعمرات والذى جاء فيه : «بودنا لو تطورت المؤسسات الانتاجية البريطانية فى اليمن . والبلد مدروس فى بعض مناطقه فقط ، ولكننى واثق من ان فيه امكانيات كبيرة ، ولا نحبذ ان يمتلك الاجانب هذه الثروة التى من شأنها ان تساعد على ازدهار امبراطوريتنا» ** .

ومع ان المسودة نصت على الاعتراف باستقلال الامام يحيى ، الا ان تطبيق شروط الاتفاقية يعنى فى الواقع فرض الحماية البريطانية على المنطقة الجبلية الداخلية من اليمن وتجزئتها الى امارات صغيرة .

واقترح الوفد البريطانى الى مؤتمر الصلح فى باريس توقيع الاتفاقية مع امام اليمن باسرع ما يمكن ، لان ذلك ، فى رأى اعضاء الوفد يعزز كثيرا مواقع بريطانيا لدى مناقشة مسألة مستقبل الجزيرة العربية فى المؤتمر *** . وكان من الاسباب الرئيسية لهذا الاستعجال ان الوفد الايطالى فى مؤتمر باريس ابدى اهتماما سافرا باليمن . واعلنت الصحافة الايطالية صراحة ان رغبة بريطانيا فى تحويل اليمن الى منطقة نفوذ بريطانيا صرف يمكن ان تثير جدالا **** .

وعجلت الدبلوماسية البريطانية فى انهاء «قضية اليمن» ولذا تقرر الاكتفاء بالمفاوضات التمهيدية مع الامام يحيى بدون مناقشة

* Ibid.

** NAI, File 186 of 1924-1925, Yemen affairs. No 8.

*** NAI, 1921, Yemen affairs. Notes, No 323.

**** Gavin R.J. Aden under British Rule . . . , p. 258.

مسألة توقيع الاتفاقية ، لان ذلك ، كما ترى لندن ، يحتاج الى وقت طويل . وكان جاكوب ينوى فى سياق المفاوضات المرتقبة مع الامام يحيى مناقشة مسألة امارات جنوب اليمن . والسبب فى ذلك ان عدن فى اواخر صيف ١٩١٩ اخذت تستلم انباء عن تحشد متطوعة الامام يحيى قرب الحدود العدنية اليمنية وافتتاح مركز جمارك له فى قرية تقع ضمن اراضى مشيخة اميرى التى تتمتع بالحماية البريطانية * .

كانت بعثة جاكوب تضم بالاضافة الى رئيسها ، الكابتن بروك والكابتن ريتشاردسون والميجر برنارد ريلى الذى صار فيما بعد اول حاكم لعدن .

فى ١٨ آب (اغسطس) ١٩١٩ وصلت البعثة الى ميناء الحديدة . ولكنها لم تتمكن من الذهاب الى صنعاء ، لان احدى القبائل الشافعية القت القبض على افراد البعثة فى اليوم التالى بمدينة باجل على بعد ٥٠ كيلومترا عن الحديدة .

هناك عدة افتراضات بصدد تدبير اعتقال بعثة جاكوب . فقد كتب امين سعيد فى «اليمن» ان اعتقال البعثة قد يكون من تدبير محمد الادريسى ، فهو ضد التقارب بين الامام يحيى وبريطانيا ، او من تدبير والى اليمن السابق محمود نديم بك ** ويؤيد هذا الافتراض سالم مصطفى *** . الا ان الاحتمال الاغلب هو ان شيوخ القبيلة الشافعية بادروا بانفسهم الى اعتقال اعضاء البعثة خشية ان تحال اراضيهم الى الامام يحيى بنتيجة المفاوضات

---

* يؤكد بعض الباحثين خطأ ان قرار ارسال جاكوب الى صنعاء جاء بعد ان قطعت متطوعة الامام يحيى على الانجليز الطريق الى الضالع ، راجع مثلا : Faroughi A. Introducing Yemen, pp. 58.-59; Macro E. Yemen and the Western World, p. 53. اما فى الواقع فان المتطوعة الزيدية لم تدخل اراضى امارات جنوب اليمن حتى نهاية الحرب ، وذلك لان الامام يحيى التزم بالحياد ولم يشارك فى الهجوم العثمانى على عدن . ولذا ما كان بوسع الزيديين ان يقطعوا على الانجليز الطريق الى الضالع . ولم يدخلوا اراضى هذه الامارة الا اثناء اسر بعثة جاكوب فى مدينة باجل ، اى بعد ارسال البعثة الى صنعاء وليس قبله (ملاحظة المؤلف) .

** سعيد امين . اليمن . . . ، ص ٦٢ .

*** سالم مصطفى . تكوين اليمن . . . ، ص ٢٦٣ .

الانكلويمنية . وكان اعتقال البعثة البريطانية على الاغلب تعبيرا عفويا عن احتجاج سكان الساحل الاكثر تضررا من عزل المناطق الداخلية عن منافذ البحر الاحمر .

وبغية اطلاق سراح اعضاء البعثة ارسل الامام يحيى الى باجل محمود نديم بك كبير مستشاريه . وكان هذا الاخير يأمل فى اطلاق سراح البعثة البريطانية مقابل ٤ آلاف ليرة عثمانية تسلمها من الامام يحيى . وقامت بمحاولة مماثلة سلطات عدن التى عرضت على شيوخ (القهرة) تعويضا بمبلغ ٥٠ الف جنيه استرلينى * . الا ان الشيوخ امتنعوا عن استلام النقود وطرحوا مطالب ذات طابع سياسى فى اغلبها . فقد طالبوا بان يغادر الانجليز ميناء الحديدة ويقدموا للشيوخ الف بندقية والفى صندوق من الذخيرة و٥ مدافع مع قذائفها و٥ رشاشات ** . ورفضت سلطات عدن هذه المطالب وصممت على الانتقال من «اللين» الى «الشدة» .

ففى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٩ قامت طائرة بريطانية من حامية عدن بتحليق استعراضى فى سماء باجل لتخويف القبيلة الشافعية ، لكن استعراض العضلات هذا لم يسفر عن النتيجة المنشودة . بالعكس ، فقد كاد ينتهى بفاجعة بالنسبة لاعضاء البعثة . فقد اطلقت القبائل نيران بنادقها على الطائرة ، وبعد ان انصرفت الطائرة تحولت نيران البنادق الى المبنى الذى كان فيه اعضاء البعثة . ولم يحل دون التنكيل بهم الا تدخل شيوخ القبيلة . وفى سياق الحملة من اجل اطلاق سراح اعضاء بعثة جاكوب انفقت سلطات عدن ٣٧٠ الف روبية لشراء الذمم فقط *** .

ولم يطلق سراح البعثة الا بعد ان وقع جاكوب اتفاقية مع شيوخ القبائل فى ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ . ويقول جاكوب فى كتابه «ملوك الجزيرة العربية» ان نص الاتفاقية من وضع ممثل بريطانيا السياسى فى الحديدة ، لكن جاكوب لا يكشف عن مضمونها **** . ويعزى ذلك ، فى اغلب الظن ، وكما يتضح

---

* Jacob H. Kings of Arabia . . . , p. 212-214.

** NAI, 1921, Yemen affairs, encl. to No 343, p. 17.

*** Ibid., encl. to No 200.

**** Jacob H. Kings of Arabia . . . , p. 216.

من وثائق الارشيف الوطنى فى الهند ، الى ان جاكوب ، فى رأى السلطات البريطانية فى عدن ، اقترف عدة اخطاء اضرت بمصالح بريطانيا . فقد ادرج فى الاتفاقية ، مثلا ، بصورة اعتباطية ، عدة بنود تتناقض ، كما يرى المسؤولون فى عدن ، مع السياسة البريطانية فى اليمن . ففى هذه الاتفاقية التزم جاكوب ، نيابة عن بريطانيا ، بعدم اتخاذ اية أجراءات تنكيلية ضد القبائل وبالدفاع عنها دون الاعمال العدوانية من جانب الامام يحيى والادريسى بالطرق الدبلوماسية وبالقوة ، ومنح القبائل حرية المتاجرة من خلال الحديدة وهلمجرا * . وفيما بعد رفضت الحكومة البريطانية الاعتراف بهذه الاتفاقية متذرعة بان جاكوب وقعها عندما كان معتقلا . وسرعان ما اقتربت عساكر الامام يحيى من حدود باجل وقرر الشيوخ الاعتراف بسلطة الادريسى خوفا من الاحتلال الزيدى ، وسرعان ما احتلت قوات الادريسى اراضى قبيلتى القهرة وعبس .

وانتهت حادثة اعتقال اعضاء البعثة البريطانية ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه الانجليز يبذلون الجهود لاطلاق سراح البعثة جرت فى اليمن احداث غيرت الموقف جذريا فى جنوب الجزيرة العربية . فقد دخلت العساكر اليمنية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٩ اراضى محمية عدن واحتلت امارة الضالع ذات الموقع الاستراتيجى الهام ، وبعدها احتلت مشيخة الشعيب العائدة لاتحاد قبائل يافع اليمنية الجنوبية ** . وكان ذلك استمرارا لكفاح مشايخ الزيديين من اجل توحيد الاراضى اليمنية تحت سلطتهم .

وتجدر الاشارة الى ان المؤرخين الغربيين ينعتون دخول جند الامام يحيى اراضى امارات جنوب اليمن بانه «غزو» و«عمل عدوانى» وهلمجرا *** . فالمؤرخون الغربيون يحاولون الحط من سمعة النضال التحررى للشعب اليمنى ويصورونه بمثابة تطاول على «الحقوق المشروعة» لبريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية . والحال فان النضال من اجل توحيد اليمن والذى تزعمه الزيديون

* NAI, 1921, Yemen affairs, encl. to No 200.

** Ibid., sub. encl. to No 337.

*** See, for example, Survey of international affairs, 1928, p. 310.

بالتعاون مع بعض القبائل الشافعية التى مالت اليهم انما هو جزء من نضال الشعوب العربية ضد الامبريالية .

ومع ان اليمن الشمالى كان مستقلا من الناحية الشكلية ولم تتعرض اراضيه للاحتلال من قبل اية دولة فان النضال الذى قاده الامام يحيى كان تحرريا فى الواقع . ولكنه كان فى البداية موجها ضد السيطرة العثمانية فى اليمن ، وبعد ذلك اتخذ شكل الحركة من اجل تأسيس دولة يمنية موحدة ومستقلة حقا . ولما كانت بريطانيا قد حالت دون ذلك بكل السبل متوخية تجزئة اليمن الى امارات صغيرة فقد اكتسب النضال الذى خاضه الامام يحيى طابعا مناهضا لبريطانيا بوضوح .

وحطم اليمن المستقل السلسلة التى شكلتها بريطانيا بشق الانفس من البلدان العربية الخاضعة للحماية ، وقد حطمها فى المنطقة الاكثر حساسية من الناحية الاستراتيجية ، فى مخرج البحر الاحمر . ولذا كانت سياسة بريطانيا فى العشرينات تستهدف اخضاع اليمن الشمالى لنفوذها وعزله عن الدول الاخرى .

وكان من عناصر سياسة عزل اليمن تسليم الحديدة ، اهم ميناء فى شمال اليمن ، الى الادريسى الموالى للانجليز آنذاك . وتم ذلك وفقا لقرار الحكومةالبريطانية فى كانون الثانى (يناير) ١٩٢١ . وجرى رسميا تبرير هذا التسليم بعزم بريطانيا على «تعزيز الصداقة مع الادريسى ومكافأته على الخدمات التى قدمها فى محاربة الاتراك» * . وقد تقبل المؤرخون الغربيون وغيرهم هذا التبرير على علاته ** .

وتجدر الاشارة الى ان ايا من دراسات هؤلاء المؤرخين لم يتضمن تحليلا للاسباب الحقيقية التى دعت الانجليز الى ترك الحديدة ، فى حين انها ميناء كبير فى شمال اليمن كان ولا يزال يعتبر مركزا حساسا فى تجارة واقتصاد البلاد ، وكان بوسع

* NAI, File 149-N. Arabia series, part 3, No 104. 1924-1925, p. 78.

** See Basic Chronology for History of the Yemen (Middle East Journal, vol. 17, No 1-2; Philby H. Arabia ..., p. 334; Gavin R. J. Aden under British rule..., p. 261; Faroughi A. Introducing Yemen ..., p. 60; Wenner M. Modern Yemen ..., p. 143).

الانجليز ان يستفيدوا منه بكل الوسائل ويحولوه الى «عدن ثانية» . وواضح ان سببا خطيرا للغاية جعلهم يتركون الحديدة (ولم يكن ذلك ابدا تعبيرا عن «الامتنان» الى الادريسى الذى لم يكن الانجليز يقيمون له اعتبارا وقد تركوه فيما بعد على كف القدر حينما انتفت الحاجة اليه) . وينبغى البحث عن هذا السبب ليس فى العلاقات بين بريطانيا والادريسى ، بل فى الموقف الدولى الجديد الذى نشأ فى عام ١٩٢٠ . كان الصراع بين الامبرياليين من اجل اقتسام التركة العثمانية ، وهو الصراع الذى احتدم بخاصة بعد الحرب العالمية الاولى ، قد اسفر عن تنشيط محاولات فرنسا وايطاليا لترسيخ اقدامهما فى شبه الجزيرة العربية . وتذكر الفرنسيون من جديد «حقوقهم» القديمة فى رأس شيخ سعيد ، بينما حاول الطليان ان يدخلوا عسير من خلال التقارب مع الادارسة * . ولذا كان الاحتلال البريطانى لميناء الحديدة اليمانى يمكن ان يدفع الحلفاء الى ابداء ادعاءات اقليمية فى الولايات العربية بحجة ضرورة الالتزام «بالتكافؤ» التام فى اقتسام التركة العثمانية .

وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى ان المادة ١٠ من اتفاقية سايكس - بيكو التى وقعتها ايطاليا فيما بعد (١٩١٧) تلزم بريطانيا وفرنسا بعدم حيازة ممتلكات اقليمية فى شبه جزيرة العرب وعدم السماح لاية دولة ثالثة بحيازة مثل هذه الممتلكات او بناء قواعد بحرية على سواحل وجزر البحر الاحمر . زد على ذلك ان حكام مسقط الموالين لبريطانيا تكبدوا فى خريف ١٩٢٠ هزيمة ماحقة على يد ثوار عمان واضطروا فى ٢٥ ايلول (سبتمبر) على توقيع معاهدة السيب التى اعترفت باستقلال عمان . وكان يخشى ان تتكرر احداث عمان فى شمال اليمن حيث اشتد تذمر السكان المحليين من احتلال الحديدة الذى ادى الى تقلص التبادل التجارى بين الساحل والجبل لدرجة كبيرة . واخذت المجاعة تتفشى فى المدن الساحلية ، بينما صارت المناطق الداخلية تعانى من نقص السلع الصناعية وغيرها مما كان يستورد فى السابق عن طريق الحديدة .

وفى هذا الوضع قررت الاوساط الحاكمة فى بريطانيا اجلاء

* NAI, 1926-27, File 427-N. Yemen affairs, encl. to No 206.

قواتها من الحديدة واحالة الميناء الى «صاحبها» الادريسى . وبهذه الخطوة رمت بريطانيا عصفورين بحجر . فمن جهة ظلت مسيطرة على ساحل البحر الاحمر عن طريق الادارسة وابقت على عزلة اليمن الداخلى وحرمانه من منفذ الى البحر ، مما جعل السكان اليمنيين فى تبعية للانجليز ومكن هؤلاء الاخيرين من استخدام الحديدة عند الاقتضاء كوسيلة للضغط على الامام يحيى . ومن جهة اخرى ازالت بريطانيا الذريعة التى كان يحتمل ان يتحجج بها الطليان والفرنسيون للتسلل الى الجزيرة العربية .

وبعد ان سلم الانجليز الحديدة الى الادارسة ركزوا جهودهم على جر الامام يحيى الى فلك نفوذهم وعزله وقطع اتصالاته مع العالم الخارجى . وكان ذلك هو الهدف الرئيسى الذى اجمعت عليه مختلف الكتل داخل الجهاز الاستعمارى البريطانى . الا ان الطرائق التكتيكية لبلوغ هذا الهدف كانت متباينة ، ولذا ارتسمت لدى الاوساط الاستعمارية البريطانية صيغتان لحل ما سمى «بالمشكلة اليمنية» . كانت الادارة فى عدن برئاسة المقيم البريطانى الجنرال سكوت تنادى ببعث الحدود التى رسمتها اللجنة الانكلوعثمانية فى ١٩٠٣-١٩٠٥ ، وقد اقترحت تحقيق ذلك بالطرق الدبلوماسية من خلال مفاوضات مع الامام يحيى . وكان انصار هذه الصيغة يؤملون فى استخدام الحديدة اثناء المفاوضات المرتقبة بمثابة طعم ليحصلوا لقاء هذا الميناء الهام على اعتراف الامام يحيى بالتقسيم الانكلوعثمانى لليمن الى شطرين . واعربت لندن والحكومة الانكلوهندية عن موافقتهما على تعديل طفيف فى الحدود بين اليمن وعدن لصالح الامام ، اى انهما تسمحان «بالتنازل» عن اراضى المحمية التى احتلها اليمنيون ، لكنهما اصرتا على ابقاء اليمن معزول عن المنافذ الرئيسية الى البحر (اى انهما لم توافقا على التنازل عن الحديدة للامام يحيى) واقترحتا توجيه التجارة الخارجية اليمنية بصورة مصطنعة من الحديدة صوب عدن بجعل هذه الاخيرة المنفذ الوحيد للتجارة الخارجية لليمن * .

* كان المنفذ الوحيد الى البحر لدى الامام يحيى فى تلك الفترة هو ميناء مخا الضحل الذى يمكن ان تدخله سفن ملاحة السواحل الصغيرة .

وطوال عشر سنين كانت السياسة البريطانيـــة فى اليمن تتذبذب بين هاتين الصيغتين . وادرجت مسألة العلاقات المتبادلة مع امام اليمن ضمن جدول اعمال مؤتمر الشرق الاوسط لممثلى الدوائر الاستعمارية البريطانية الذى عقد فى اذار (مارس) ١٩٢١ فى القاهرة . وحتى ذلك الوقت ، كما جاء فى المذكرة التى اعدها العقيد لورنس مستشار الشؤون العربية لدى وزارة المستعمرات (والذى كان فى السابق من زعماء انتفاضة الحجاز) ، «توغلت العساكر الزيدية مسافـــة ٢٥ ميلا فى اعماق محمية عدن فى منطقة الضالع وتقدمت قليلا فى اراضى صبيحى . . .» . واكد المؤتمر ان توقيع الاتفاقية مع الامام يحيى تمليه ضرورة «ازالة اية فرصة للدسائس الفرنسية او الايطالية فى اليمن» * . ولبلوغ هذا الهدف قرر المؤتمر الاقدام على بعض «التنازلات» الاقليمية لامام الزيدية . واقترحت مذكرة لورنس التى اقرهـــا المؤتمر التعهد للامام يحيى بتسهيلات جمركية فى الحديدة وتقديم معونة شهرية وضمان سيطرته على مخا والاعتراف بسلطته فى المناطق الداخلية من محمية عدن ما عدا لحج والفضلى .

وكان يراد للامام بدوره ان يلتزم «بعدم تسليم اى جزء من اراضيه الى دول اخرى بدون موافقة بريطانيا ومنح الامتيازات للرعايا البريطانيين بالدرجة الاولى» ** .

وتجدر الاشارة الى ان ذلـــك يعتبر تنازلا كبيرا من جانب بريطانيا . الا ان انصار حل «المشكلة اليمنيـــة» بهذه الصورة كانوا يؤملون بانهم سيعوضون عن «خسائر» الاراضى بابقاء عزلة اليمن الداخلى والتزام الامام بعدم الاتصال بدول اخرى . وكانوا يريدون ليس فقط تأمين اعتراف الامام بحقوق بريطانيا فى عدن ولحج ، بل والهيمنة عليه من خلال جعـــل عدن المنفذ التجارى الاساسى لليمن *** . وبعبارة اخرى كانت وراء هذه المساومة حسابات اقتصادية الهدف منها سد منافذ البحر فى وجه اليمن من خلال الحديدة وجعل عدن الميناء الوحيد لليمن كله ، بشمالـــه

NAI, 1923. Report on the Middle East Conference . . . p. 172. *

Ibid. **

Gavin R.J. Aden under British Rule . . . , p. 263. ***

5*

وجنوبه . وهذا يعنى ان الانجليز عندما يستولون على القســـم الاعظم من تجارة اليمن الخارجية يستطيعون فى اللحظة اللازمة ان يمارسوا الضغوط الاقتصادية والسياسية على الامام يحيى فضلا عن الارباح الكبيرة من جباية الضرائب الجمركية .

وكان ونستون شرشل ، وزير المستعمرات آنذاك ، قد ايد فكرة «التنازل» عن قسم من اراضى المحمية الى الامام يحيى انطلاقا من «ان الصعوبات السياسية والمالية التى تواجهها بريطانيا تعيق الحرب ضد الامام فى المرحلة الراهنة» * .

وكان اجتماع المسؤولين الاستعماريين البريطانيين الذى عقد فى وزارة المستعمرات فى ٢ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ قد توصل الى استنتاج بشأن ضرورة «رسم حدود جديدة لمحمية عدن بحيث ترضى الامام وتستجيب فى الوقت ذاتـــه لمصالح بريطانيـــا الاستراتيجية والسياسية» ** . علما بان الاجتماع اشار الى استحالة التنازل للامام عن اى جزء من الساحل . واوصى الاجتماع ببذل قصارى الجهود لتحويل عدن الى المنفذ التجارى الخارجى الوحيد لليمن والعمل على تجميد التجارة من خلال مرفأ الحديدة . وبغية تنسيق مسألة تعديـــل الحدود بين عدن واليمن تقرر استدعاء المقيم البريطانـــى فى عدن الجنرال سكوت الـــى لندن *** .

وفى اعقاب الاجتماع طلبت وزارة الحربيـــة البريطانية من الجنرال سكوت ان يبدى رأيه بخصوص مواقع وكيفية رســـم الحدود الجديدة للمحمية بحيث تكون مناسبـــة من وجهة نظر الاستراتيجية الحربية **** .

الا ان المقيم البريطانى فى عدن اعترض بشدة على تعديل الحدود التى رسمتها اللجنة الحدودية الانكلوعثمانية فى ١٩٠٣–١٩٠٥ . وقد دافع عن رأيه وحاول ان يثبت بان الحدود الحالية اكثر مناسبة ، لانها تمر اساسا عبر قمم السلاسل الجبلية ، الامر

NAI, File 492-x, 1923. Treaty Negotiations . . . , No 8, p. 3. *

Ibid. **

Ibid. ***

Ibid., No 5. ****

الذى يشكل عائقا طبيعيا امام اى توغل فى اراضى المحميـــة البريطانية من المؤخرة * .

واثار اعتراض المقيم البريطانى فى عدن استياء شرشل لدرجة كبيرة ، حتى انه كلف نائبه فى ٢٠ حزيران (يونيو) بان يؤثر على المقيم ، فهو ، كما اكد شرشل ، «لا يفهم ، على ما يبدو ، جوهر المشكلة التى نظر فيهـــا اجتماع ٢ يونيـــو فى وزارة المستعمرات» ** .

وفى ٣ تموز (يوليو) ١٩٢٢ بعثت وزارة الحربية الى الجنرال سكوت برقية جاء فيها : «نظرا لصعوبة طرد عساكر الامام من الاراضى التى احتلتها لا بد من تقليص اراضى المحميـــة بعض الشىء . فهل يمكنك ان تقترح حدودا جديدة تستجيب لمصالحنا السياسية والاستراتيجية وتلبى ادعاءات الامام الاقليمية فى الوقت ذاته ؟» *** . الا ان الجنرال سكوت اصر هذه المرة ايضا على موقفه السابق .

وعندما كانت المجادلات مستمرة فى الاوساط الاستعمارية البريطانية بخصوص تعديل حدود ١٩٠٥ اليمنية العدنية جرت فى عدن مفاوضات بين الميجر برنارد ريلى نائب المقيم البريطانى وعبد الله العرشى مبعوث الامام الذى وصل الى عدن فى حزيران (يونيو) ١٩٢١ **** . جاءت المبادرة الى اجراء هذه المفاوضات من الجانب البريطانى ، وقد اوقف الامام يحيى مؤقتا زحف جنده فى امارات الجنوب دون ان يتخلى عن خطته لتوحيد اليمن ، فوافق على ارسال ممثله الى عدن . وكان الهدف الرئيسى الذى يتوخاه الامام عندما اقدم على هذه الخطوة هو كسب الوقت اللازم لاخماد الحركة الانفصالية التى قامت بها بعض القبائل واشتدت فى مطلع العشرينـــات . فبدون تعزيز المؤخرة فى ظروف الانقطاع التام تقريبا عن البحر مـــا كان اليمنيون يؤملـــون فى الانتصار على الانجليز . واذا كان الامام يحيى يدارى املا فى استرجاع الحديدة

Ibid., No 6. *

Ibid., No 14. **

Ibid., No 11. ***

Ibid., No 58, appendix A. ****

بنتيجة المفاوضات فان ذلك الامل كان ضعيفا واهيا ، لان الامام يعلم ان الانجليز من جهة والادريسى من جهة اخرى لن يوافقوا على ذلك بدون تنازلات خطيرة من جانبه .

واستمرت المفاوضات فى عدن عامين ونصفا (من حزيران ١٩٢١ حتى بداية عام ١٩٢٤) ناقش فيها مبعوث الامام مع ريلى عدة مشاريع للاتفاقية ، وكان يرتحـــل الى صنعاء للتشاور مع الامام ويعود مجددا لعرض التعديلات الجديدة التى يطرحها الامام يحيى ، وفى آخر المطاف ، عندما صار الوضع فى مقاطعات اليمن الجبلية اكثر استقرارا واخضع الامام بالقوة القبائل التى تمردت عليه استدعى مبعوثه من عدن .

ان الارشيفات الدبلوماسية البريطانية التى ازيح عنها النقاب مؤخرا تساعد على متابعة سير مفاوضات العرشى – ريلى وتحليل تكتيك الدبلوماسية البريطانية فى تلك المرحلة والكشف عن نوايا بريطانيا الفعلية تجاه اليمن . وتجدر الاشارة الى ان المؤلفات الموجودة حاليا فى تاريخ اليمن تخلو من تفاصيل هذه المفاوضات التى نوردها ادناه .

منذ بداية المفاوضات اعلن العرشى ان الامام يحيى يطالب باراضى الادريسى شمالى جيزان (عسير) وباليمن كله فى حدوده التاريخية ، اى بما فيه محمية عدن . وردا على ذلك طرح الانجليز شروطهم الواردة فى مسودة الاتفاقية بين بريطانيا والامام يحيى . وسلموا المسودة الى مبعوث الامام فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ .

وتتلخص اهم احكام مسودة الاتفاقية فيما يلى :

تعترف بريطانيا «باستقلال الامام وسلطته فى جميع الاراضى المتاخمة لاراضى بريطانيا (اى محمية عدن) من جهة واراضى الملك حسين والادريسى من جهة اخرى . وهذه الاراضى (اراضى الامام يحيى) ستسمى فى المستقبـــل باليمن» * . وبعبارة اخرى فان الانجليز ، مثلما كانوا فى التقسيم الانكلوعثمانى لليمن ، يريدون ان يغيروا بصورة مفتعلة مفهـــوم «اليمن» التاريخى الجغرافى ويكرسوا نهائيا عزل اراضى الامام فعليا عن البحر .

Ibid. *

وبموجب مسودة الاتفاقية البريطانية يتعين على الامام يحيى ان يعترف باتفاقيات الحماية التى وقعتها بريطانيا مع قبائل اليمن الجنوبى وان يقيم العلاقات مع بريطانيا وحدها ولا يسلم باى شكل كان ولو جزءا من اراضيه الى دول اخرى وان يقدم الامتيازات بالدرجة الاولى الى الرعايا البريطانيين . وفى مقابل ذلك تلتزم بريطانيا بتقديم معونة شهرية للامام وتمنح اليمن حرية التجارة عن طريق البحر * .

لم يرفض مبعوث الامام رأسا المسودة التى اقترحها الانجليز ، لكنه اعترض على بعض بنودها . وبنتيجة المباحثات الطويلة وضع العرشى وريلى فى بداية تموز (يوليو) ١٩٢٢ مشروعا مشتركا للاتفاقية ، ومع ذلك ظلت معلقة المسألة الاساسية الخاصة بمكانة امارات جنوب اليمن والحدود بين اراضى الامام ومحمية عدن .

وسعى مبعوث الامام فى بادئ الامر الى جعل بريطانيا تعترف بحقوق الامام فى جنوب الجزيرة العربية كله ، لكنه اعلن فيما بعد ان الامام يحيى مستعد لعدم الاصرار على ذلك اذا عمل الانجليز على تسليمه الحديدة التى هى ، كما اكد ، ميناء لصنعاء ولليمن كله ** . ورأى ريلى الذى لا يتمتع بصلاحيات البت فى مثل هذه المسألة الخطيرة ان من المجدى ترك البند الخاص بمكانة امارات جنوب اليمن وحدودها خاليا ، وسلم مشروع الاتفاقية بشكله هذا الى الجنرال سكوت الذى توجه آنذاك الى لندن .

وكان نبأ استعداد الامام يحيى للاعتراف بالحماية البريطانية فى جنوب اليمن مقابل الحديدة هاما للغاية بالنسبة للمقيم البريطانى فى عدن ، ولذا قرر استخدام هذه «الورقة الرابحة» فى الاجتماع المرتقب للموظفين الاستعماريين البريطانيين لاقناع لندن بضرورة استئناف حدود عام ١٩٠٥ بين اليمن وعدن .

واعلن الجنرال سكوت فى كلمته فى الاجتماع الذى عقد فى وزارة المستعمرات يوم ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٢٢ ان استخدام الطائرات فى شباط (فبراير) ١٩٢٢ ضد عساكر الامام يحيى

* Ibid.

** Ibid., encl. to No 20, p. 18.

وانسحابها بنتيجة قصف المناطق الحدودية فى حوشبى وصبيحى قد بينا ان بالامكان استئناف حدود ١٩٠٥ بواسطة سلاح الجو وتسليح قبائل المحمية ، وبذا يمكن الحيلولة دون استمرار «توغل» فصائل الامام فى اراضى المحمية . واطلع المقيم البريطانى الحاضرين على سير المفاوضات بين ريلى والعرشى واقترح لاول مرة تسليم الحديدة الى الامام يحيى مقابل اعترافه «بحقوق» بريطانيا فى جنوب اليمن . وبرر الجنرال سكوت اقتراحه هذا بعدم اهتمام الادارسة بتطوير ميناء الحديدة وبكون موقعهم فى هذه المدينة مضعضعا وغير مأمون اطلاقا ، لان سياستهم فى النهب والسلب من خلال الضرائب تثير تذمرا شديدا لدى السكان المحليين . بينما توجد للزيدية مصلحة عميقة فى تطوير هذا الميناء الذى يمر من خلاله القسم الاساسى من علاقاتهم التجارية الخارجية .

واعرب المقيم البريطانى عن ارتيابه فى واقعية توجيه التجارة الخارجية اليمنية بصورة مفتعلة من الحديدة الى عدن . فالمسافة من منطقة الجبل الزيدية الى الحديدة هى نصف المسافة الى عدن . زد على ذلك ان تغيير الاتجاه التقليدى لطرق القوافل التجارية الموجودة من قرون عديدة امر فى منتهى الصعوبة . وابلغ المقيم الحاضرين كذلك بمحاولات ايطاليا وفرنسا لاقامة اتصالات وثقى مع الامام يحيى * . كل ذلك دليل على ضرورة الاسراع فى توقيع الاتفاقية مع الامام .

وكانت حجج الجنرال سكوت مقنعة ، ولذا اتخذ الاجتماع قرارا «بمطالبة الادريسى بترك الحديدة والتنازل عنها للامام» ووعده فى مقابل ذلك بتطوير ميناء الصليف وزيادة المعونة الشهرية المقدمة الى الادريسى من الف جنيه استرلينى الى الفين وتزويده بسفينة . وبموجب قرار الاجتماع كان على الامام يحيى ، مقابل استلام الحديدة ، ان يعترف بكل اتفاقيات الحماية

* فى عام ١٩٢٢ وصلت الى صنعاء بعثة فرنسية حاولت عبثا توقيع عدة اتفاقيات تجارية مع الامام يحيى ، بما فى ذلك الحصول على احتكار شراء البن اليمنى كله مقابل ارساليات السلاح والعتاد الحربى من فرنسا .

البريطانية فى امارات اليمن الجنوبى ويسحب قواته الى ما وراء حدود ١٩٠٥ التى رسمتها اللجنة الانكلوعثمانية * .

وهكذا كانت الغلبة لانصار استئناف حدود ١٩٠٥ . وفى رسالة مؤرخة فى ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ اكد وزير المستعمرات ونستون شرشل «ان الحدود العثمانية الحالية يجب ان تغدو حدا فاصلا بين محمية عدن واراضى الامام» ** بعد نجاح المباحثات مع الادريسى حول تسليم الحديدة الى الامام يحيى .

وبغية تنفيذ قرارات اجتماع تموز (يوليو) اتفق الجنرال سكوت مع محمد الادريسى على التفاوض من اجل توقيع اتفاقية جديدة تحل محل اتفاقيتى ١٩١٥ و١٩١٧ . وكان سكوت يريد فى الوقت ذاته ان يناقش مع الادريسى مسألة تسليم الحديدة الى امام الزيدية *** . الا ان المفاوضات تأجلت بسبب مرض محمد الادريسى ولم تناقش مسألة الحديدة معه حتى نيسان (ابريل) ١٩٢٣ .

وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ عاد العرشى من صنعاء واستؤنفت المفاوضات بينه وبين ريلى . وافاد العرشى ان الامام يحيى اطلع على مشروع الاتفاقية الاخير واستحسنه بالاساس ولم يبد الا بعض الملاحظات . وحتى شباط (فبراير) ١٩٢٣ كان ريلى والعرشى قد فرغا من اعداد مشروع الاتفاقية الجديد بعد ان اخذا بعين الاعتبار ملاحظات وتعديلات الهيئات الاعلى . ولم يعد المشروع الجديد يتضمن تفسيرا اعتباطيا لمفهوم «اليمن» . واعترفت بريطانيا «بالاستقلال التام لصاحب الجلالة الامام فى جميع المسائل السياسية والادارية ، الداخلية منها والخارجية ، وبسلطته فى الاراضى التابعة له» . الا ان هذا «الاستقلال التام» مقيد بالتزام الامام «بعدم الدخول فى اية علاقات مع الدول الاخرى اذا كانت تلحق ضررا ببريطانيا **** . وفى هذا المشروع ، شأن المسودة السابقة ، لم يرد ذكر للمسألة الاساسية بخصوص مكانة امارات اليمن الجنوبى . وحاول ريلى اقناع العرشى بتوقيع

* NAI, File 492-x, 1923. Treaty negotiations ..., No 24.

** Ibid., No 23, p. 28.

*** Ibid., encl. to No 29.

**** Ibid.

الاتفاقية بشكلها غير الكامل هذا ، وتأجيل البت فى مسألة الحدود حتى وصول ممثل الادريسى الى عدن . الا ان العرشى رفض رفضا باتا واعلن ان الامام يحيى لن يصادق على الاتفاقية ما لم يستلم الحديدة ، كما رفض العرشى فكرة الالتقاء بممثل الادريسى واعلن بانه لا يعترف بمطامعه فى اليمن * .

وهكذا قوضت مشكلة الحديدة خطط الانجليز الذين سعوا الى توقيع الاتفاقية مع الامام يحيى باسرع ما يمكن ، بينما ادى تدهور صحة محمد الادريسى الى تأجيل المفاوضات بشأن الحديدة المرة بعد المرة .

كانت لدى الادارة فى عدن اسباب وجيهة للقلق على مصير «الدولة» الادريسية التى ادت دورا مزدوجا . فمن جهة سدت منافذ البحر فى وجه اليمن ، وحالت من جهة اخرى دون تسرب الدول الاخرى الى القسم الجنوبى من الجزيرة العربية . وكان من اسباب قلق الانجليز ان الضرائب الفاحشة التى يجبيها الادارسة وسوء تصرف موظفى عسير فى الاراضى المحتلة قد اثارا تذمرا شديدا لدى السكان المحليين .

وافاد الميجر باريت ، نائب المقيم البريطانى فى عدن ، فى تقرير بعثه الى وزير المستعمرات فى ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ ان الحرب ضد الامام استنزفت موارد الادريسى ، وربما يمكنه ، وهو حى يرزق ، ان يحافظ على الوئام والنظام فى ممتلكاته اعتمادا على منزلته ومكانته . ولكن من بعده سيحل «الطوفان» . فهو لا يستطيع ان يشكل حكومة مستقرة بقدر ما . وستكون وفاته نذيرا بالقلاقل والفوضى .

واثبت سير الاحداث اللاحق صحة هذه التوقعات . ففى ٢٠ آذار (مارس) ١٩٢٣ قضى محمد بن على الادريسى نحبه وغدت وفاته فى الواقع بداية لسقوط امارة الادريسى السريعة الزوال . وكان سقوطها محتما ، لان هذه الامارة التى اتسع نطاقها كثيرا ابان الحرب العالمية الاولى كانت هشة للغاية .

ولئن كان الادارسة يتمتعون بمنزلة مرموقة فى جنوب عسير حيث حكموه عشرات السنين وكانت لهم مصلحة فى تطوير التجارة

* Ibid., notes, No 24.

والاقتصاد فيه ، فقد كانوا فى الساحل اليمنى بمصاف المحتلين ، وما كان يهمهم سوى نهب الاهالى فى السر والعلن . وكان الاحتلال قد اخل بالعلاقات التجارية والاقتصادية والاجتماعية التقليدية بين اهالى الساحل اليمنى واهالى المنطقة الجبلية الخصبة التى تؤمن للمدن والقرى الساحلية المواد الغذائية الاساسية . وبالنتيجة تفشت المجاعة فى الساحل وتقلص عدد المدن الساحلية . الا ان الاحتلال فى الوقت ذاته كانت له بعض النتائج الايجابية اضافة الى عواقبه السلبية .

فلئن كانت تحدث فى الماضى صدامات طائفية بين اهالى الساحل الشافعية واهالى الجبل الزيدية ، فان المصالح الاقتصادية فى الوضع الطارىء وحدت هاتين الطائفتين المتعاديتين فيما مضى . وفى سياق نشوء السوق اليمنية المشتركة على نحو سريع وازدياد دور المصالح السياسية العامة لسكان اليمن من مختلف القبائل كان لا بد من تصفية العزلة المصطنعة وطرد النازحين من جند عسير فيما بعد .

وبعد وفاة محمد الادريسى غدا ابنه على البالغ من العمر السابعة عشرة حاكما لامارة الادارسة ، وقد حكمها فى البداية تحت وصاية عمه حسن الادريسى * .

وكان الحاكم الشاب قليل الخبرة فى الشؤون السياسية ولا يتحلى بسعة الاطلاع ، مما ادى الى تدهور الوضع العصيب اصلا فى امارة الادارسة . واستحثت وفاة محمد بن على الادريسى السلطات الاستعمارية البريطانية للتعجيل فى حل مسألة الحديدة . فقد عقد فى لندن من جديد ، فى ٢٣ ايار (مايو) ١٩٢٣ ، اجتماع لجنة الشرق الاوسط لدى مجلس الوزراء البريطانى ، وكان مكرسا لعلاقات بريطانيا مع الامام يحيى

* ولد على بن محمد الادريسى عام ١٩٠٥ فى مدينة دنقلة (السودان) . وكتب الكابتن فضل الدين ممثل بريطانيا فى الحديدة عن الحاكم الجديد فى عام ١٩٢٣ قائلا ان على الادريسى «يحفظ القرآن عن ظهر قلب وقد قرأ عدة كتب فى قواعد اللغة والفقه الاسلامى ، لكنه لا يعرف شيئا على الاطلاق عن العالم الخارجى» . (الارشيف الوطنى الهندى . الملف ٧٧٩ ، ١٩٢٣ . وفاة السيد محمد بن على الادريسى) .

والادريسى . واعلن فى الاجتماع ان مجلس الوزراء البريطانى قرر قبل وفاة الادريسى الامتناع عن دفع المساعدات له ، لكنه خصص مبلغ ٢٠ الف جنيه استرلينى يمكن ان يسدد الى الادريسى لقاء موافقته على تسليم الحديدة الى الزيديين . واعلن رئيس الجلسة ، نائب وزير المستعمرات جون شوكبورغ ، ان هذا المبلغ يمكن ان يلغى بقرار من مجلس الوزراء اذا لم يستخدم فى غضون السنة المالية الحالية ، اى قبل نيسان (ابريل) ١٩٢٤ . ونوقش فى الاجتماع المشروع الجديد للاتفاقية الانكلويمنية الذى وضعه ريلى والعرشى فى شباط (فبراير) ١٩٢٣ ، واجرى ممثلو مختلف الدوائر انطلاقا من مصالحها تعديلات واضافات على هذا المشروع * .

وهكذا فحتى آب (اغسطس) ١٩٢٣ حظى اقتراح تسليم الحديدة الى الامام يحيى مقابل اعترافه بحدود ١٩٠٥ بتأييد وزارة الخارجية البريطانية ووزارة المستعمرات والخزينة واميرالات البحرية ووزارة الحربية ووزارة سلاح الجو ** . ولم يعترض عليه الا الادارة الانكلوهندية ووزارة شؤون الهند اللتان ظلتا تحاولان الدفاع عن صيغة عزل اليمن عن البحر فى مقابل بعض «التنازلات الاقليمية» وتعديل حدود ١٩٠٥ بين اليمن وعدن *** .

واخيرا ، وبعد مجادلات طويلة صادقت الحكومة البريطانية نهائيا على قرار تسليم الحديدة الى الامام يحيى بشرط ان يعترف بحدود عام ١٩٠٥ . وفى ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ بعث وزير المستعمرات الجديد فى حكومة المحافظين بونار لو ديفونشير الى المقيم البريطانى فى عدن المشروع المعدل للاتفاقية الانكلويمنية الذى ينبغى ان تجرى وفقا له المرحلة الختامية من المفاوضات مع مبعوث الامام يحيى **** . وتضمن المشروع الجديد كل الاحكام الاساسية الواردة فى

* NAI, File 492-x, 1923. Treaty negotiations ..., No 37.
** Ibid., No 42.
*** Ibid., No 47.
**** Ibid., No 53.

المشاريع السالفة ، لكنه اهمل كالسابق البند الخاص بمكانة امارات جنوب اليمن وحدودها ، اى ان المسألة الرئيسية ظلت معلقة مع ذلك .

وفى العاشر من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٣ اعلن نائب المقيم البريطانى فى عدن الميجر باريت الذى اجرى المرحلة الختامية من المفاوضات مع العرشى عن موافقة الحكومة البريطانية على المساعدة فى حل مسألة الحديدة . ولكن من الضرورى قبل ذلك ، كما افاد باريت ، توفر اعتراف خطى من الامام باتفاقيات الحدود اليمنية العدنية التى وقعتها بريطانيا مع الباب العالى . ووافقت بريطانيا على عدم الاصرار على انسحاب المتطوعة الزيدية من اراضى المحمية التى تحتلها الى ان يستلم الامام يحيى الحديدة . وعلى الامام بدوره ان يلتزم بعدم القيام فى المستقبل باى تدخل فى اراضى المحمية * .

وطلب العرشى فرصة لتنسيق الرد مع الامام يحيى . وفى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) اعلن للميجر باريت ان الامام ورعاياه لن يعترفوا بالحماية البريطانية على امارات جنوب اليمن ، وذلك لان شيوخ جميع القبائل اليمانية (بما فيها قبائل الجنوب) لا يحق لهم توقيع اية اتفاقيات بدون سماح من امام الزيدية . واعلن العرشى كذلك ان الامام يحيى لا يستطيع ان يعترف باتفاقيات وقعها العثمانيون بخصوص اليمن . ومع ذلك وتعبيرا عن موقفه الودى من بريطانيا فانه مستعد للاعتراف ببعض حقوقها الخاصة فى جنوب شبه الجزيرة ، ولذا يصرف النظر مؤقتا عن حقوقه فى عدن ذاتها . لكن مسألة مكانة عدن يجب ان تحل ، برأى الامام ، فى اتفاقية منفصلة . وفى ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٣ قدم العرشى الى باريت مشروع الاتفاقية الانكلويمنية الذى اعده الامام يحيى . وامتنع الامام يحيى فى هذا المشروع عن الاعتراف بالحماية البريطانية فى جنوب اليمن واصر على ان امارات الجنوب يجب ان تخضع بالكامل لامام الزيدية ** .

* Ibid., No 58.

** Ibid.

ولئن كان الامام يحيى طوال عامين ونصف من مفاوضات العرشى فى عدن يتجنب الرفض الكامل للمشاريع البريطانية ويكتفى باجراء بعض التغييرات والتعديلات عليها ، ففى اواخر عام ١٩٢٣ التزم بموقف اكثر صلابة . وساعد على هذا التبدل استقرار الوضع الداخلى فى اليمن الزيدى وتعزز سلطة الامام يحيى الذى تمكن من اخماد قلاقل القبائل ذات الميول الانفصالية . زد على ذلك ان امارة الادارسة ، بعد وفاة محمد الادريسى المنافس العربى الرئيسى للامام يحيى فى الصراع من اجل السلطة فى اليمن ، لم تعد قادرة على الصمود امام الامام الزيدى الاقوى بعد ان نهشتها الصراعات والعداوات بين مختلف التكتلات .

وتقوت ثقة الامام يحيى خصوصا عندما اقام فى بداية عام ١٩٢٤ اتصالات مع ايطاليا وصار يستلم السلاح الايطالى الذى كان يصل الى مخا ومنها الى منطقة الجبل الزيدية * .

وبعد وفاة محمد الادريسى نشط جند الامام العمليات الحربية الرامية الى انهاء عزل اليمن الداخلى عن البحر الاحمر ، كما استأنفوا فى الوقت ذاته زحفهم الى اعماق محمية عدن . وفى تموز (يوليو) ١٩٢٣ احتلوا اراضى قبيلة الكتيب اليمنية الجنوبية ** .

وبناء على اقتراح وزير المستعمرات لم يرد الانجليز باى حال على هذه العمليات ، وذلك ليتم توقيع الاتفاقية مع الامام بصورة اسرع . الا ان احتلال اليمنيين الشماليين لامارة البيضاء فى ايلول (سبتمبر) ١٩٢٣ وتشدد موقف مبعوث الامام فى مفاوضات عدن قد قوضا اخيرا الخطط البريطانية لاخضاع امام الزيدية للنفوذ البريطانى .

ولم يسفر عن النتيجة المنشودة وعد الانجليز بتسليم الحديدة الى الامام الزيدى مقابل اعترافه بحدود ١٩٠٥ . فالامام يحيى كان مصمما على توحيد اليمن كله تحت سلطته

* NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 6.

** NAI, File 492-x, 1923. Treaty negotiations . . . , encl. to No 41.

ولم يوافق على اية تنازلات . وسرعان ما استدعى الامام مبعوثه من عدن دون ان يوقع اية اتفاقية .

وعندما كان مبعوث الامام يتفاوض مع ممثلى الادارة فى عدن وصل الى صنعاء فى اواخر عام ١٩٢٣ هارولد جاكوب النائب السابق للمقيم البريطانى فى عدن * . وقد اثارت هذه الزيارة الشخصية مختلف الاشاعات والاقاويل التى انعكست فى الصحافة فى الفترة ١٩٢٣-١٩٢٤ . ومن تلك الاشاعات النبأ القائل بان جاكوب وقع الاتفاقية الانكلويمنية فى صنعاء . وقد اقلق هذا النبأ الحسين ملك الحجاز لدرجة كبيرة ، فقد كان يخشى ان توجه هذه الاتفاقية ضده ، حتى انه بعث فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) ١٩٢٤ استجوابا عاجلا الى لندن بشأن صحة هذه الاشاعات . وسرعان ما جاءه الجواب بان بريطانيا لم توقع الاتفاقية مع امام اليمن بعد ، وان احكام الاتفاقية فى كل الاحوال لن تمس مصالح الحجاز ** .

كانت زيارة جاكوب الى الامام يحيى فى عام ١٩٢٣ قد ضللت صحافة العشرينات ، وليس الصحافة وحدها ، بل وبعض المستشرقين الغربيين والسوفييت والباحثين العرب الذين تصوروا خطأ ان مهمة جاكوب كانت رسمية وانه اقترح على الامام يحيى الاعتراف بسيادته فى محمية عدن ، بما فيها لحج وحضرموت ، وبذا اعرب عن وجهة نظر الحكومة البريطانية .

ولذلك ظلت المطبوعات العلمية حتى الآن تحتوى على رأى ثابت يقول ان «بعثة» جاكوب الى صنعاء فى عام ١٩٢٣ كانت من المحاولات الدبلوماسية لتوقيع الصلح مع امام اليمن . ونشأ انطباع وكأن بريطانيا اقدمت على تنازلات اقليمية كبيرة بموافقتها على تسليم حضرموت ، بل وحتى لحج ، الى الامام

* يؤكد المؤرخ الاميركى أ. فروجى خطأ ان جاكوب كان فى عام ١٩٢٣ مندوبا ساميا فى عدن . (Faroughi A. Introducing Yemen..., p. 60.) فلم يكن هناك عموما مثل هذا المنصب . ثم ان جاكوب فى تلك الفترة اعتزل السياسة ومارس التجارة . وقد وصل الى صنعاء ممثلا عن شركة «زيد» البريطانية «المحدودة» . انظر : (الارشيف الوطنى الهندى . الملف ٤٩٢ اكس ، رقم ٧) .

** NAI, File 492-x, 1923. Treaty negotiations ..., No 59.

يحيى ، مع ان هذه الاخيرة كانت دوما المرتكز الاساسى للسيطرة البريطانية فى محمية عدن . الا ان وثائق الارشيف الوطنى الهندى تدل على ان الامور كانت فى الواقع على غير ذلك تماما .

فعندما وصل جاكوب الى عدن فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٣ اعلن للمقيم البريطانى «انه الآن تاجر لا يمارس السياسة» * . الا ان جاكوب عندما وصل الى صنعاء تلبية لدعوة الامام يحيى انتحل صلاحيات ممثل الحكومة البريطانية وحاول ان يحصل على امتيازت اقتصادية وتجارية نافعة واعلن ان بريطانيا مستعدة لمنح الامام يحيى معونة مالية واسلحة وطائرات مع طيارين وفنيين لخدمتها ، وهى موافقة على الاعتراف بسيادته فى امارات جنوب اليمن ما عدا عدن ** .

ولم يستعجل الامام بالرد ، فهو يسعى الى الحصول على المزيد من التنازلات من جانب بريطانيا . وقرر ان يستفيد من جاكوب لاقامة اتصال مباشر مع لندن ، بتخطى الادارة فى عدن التى تضع ، كما خيل اليه ، عراقيل فى طريق تسوية كل المشاكل . وكتب الامام يحيى رسالة الى ملك بريطانيا جورج الخامس وكلف جاكوب بارسالها الى لندن متصورا بانهم سيفهمونه هناك اكثر مما فى عدن *** .

ولبى جاكوب طلب الامام وفعل ما اراد دون علم الادارة فى عدن . وقد ثارت حفيظة المسؤولين فيها من هذا النبأ ومن انتحال جاكوب لصلاحيات هو غير مخول بها فى وقت كانت المفاوضات مع العرشى تشرف على الانتهاء وكل الدوائر الاستعمارية البريطانية تناقش نتائجها وتناقش المشروع الجديد للاتفاقية مع الامام . وبعث الجنرال سكوت فى الحال رسالة الى الامام يحيى اعلن فيها ان جاكوب «لا يمت بأية صلة لشؤون الدولة ولذا فان حكومتى لا تعير اهتماما لتصريحاته فى المسائل السياسية» **** .

* NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 8, p. 5.

** Ibid., No 6, p. 8.

*** Ibid.

**** Ibid., No 6.

وسرعان ما ورد من لندن جواب على رسالة الامام واوصى الجواب بمراجعة المقيم البريطانى فى عدن ، وليس جاكوب ، فيما يخص كل المسائل * . وهكذا اخفقت محاولة الامام يحيى لتخطى الادارة فى عدن . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٢٤ عاد جاكوب من صنعاء الى عدن وظل فيها حتى حزيران (يونيو) من العام نفسه .

لم يكن نشاط جاكوب «الموالى للامام» فى اليمن يروق للادارة فى عدن ، وكاد الجنرال سكوت ، على حد اعترافه فى برقية سرية الى وزير المستعمرات ، ان يطرده من اليمن لولا انه يخشى «الفضيحة» ويخشى الاعلان الواسع عن واقع كون النائب السابق للمقيم البريطانى فى عدن يطبق الآن سياسة تتعارض مع مصالح بريطانيا .

وكانت الادارة فى عدن تخشى الاعلان عن ذلك لسبب آخر هو ان الرأى الذى انتشر فى كل مكان ، والقائل بان جاكوب عرض رسميا على الامام يحيى اعتراف بريطانيا بسيادته على محمية عدن كلها تقريبا لكن الامام رفض ، سيكون من مصلحة الدبلوماسية البريطانية لانه يوفر لها الفرصة للاستفادة فى المستقبل من هذا الرفض لتبرير العمليات الحربية ضد الحركة التوحيدية اليمنية .

ولذا امتنعت الادارة عن تكذيب الاشاعات بخصوص «مهمة» جاكوب ولم تشجب تصرفه رسميا . وبنتيجة ذلك ظهر فى الصحافة ، وفيما بعد فى المؤلفات العلمية الخاصة بتاريخ اليمن ، تفسير خاطئ لنتائج رحلة جاكوب الى صنعاء فى عام ١٩٢٣ ، ولم تكشف عن حقيقة هذه «المهمة» الا الوثائق الارشيفية .

ومن المهم بهذا الخصوص ان نورد على سبيل المقارنة مثالا على ردود الفعل الشديدة لدى الدوائر الاستعمارية البريطانية على الانباء او المقالات الصحفية التى لا تروق لها . فقد نشرت «التايمس» اللندنية فى ١٢ آب (اغسطس) ١٩٢٦ مقالة بعنوان «الحكام العرب وعدن» عرضت فيها بالاساس نفس المبادىء التى

* NAI, File No 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 8.

يتمسك بها جاكوب . ويستفاد من مضمون المقالة ، كما اكد وزير المستعمرات امرى فى رسالة الى هيئة تحرير «التايمس» ان «امام صنعاء هو الحاكم الشرعى لليمن كله وان الانجليز فى عدن ضيوف ثقلاء» * .

وبعد اسبوع ، فى ١٩ آب ، نشرت «التايمس» رسالة اللورد لامنغتون الذى حاول فيها ان يصحح الاخطاء التى وقع فيها كاتب مقالة «الحكام العرب وعدن» ** ، وفى رسالة شخصية الى رئيس تحرير «التايمس» نصحه وزير المستعمرات بان يراعى فى المستقبل الملاحظات التى قدمت له «اذا وقعت فى يده مقالة من هذا النوع» *** . ان رد الفعل الشديد الذى اثارته مقالة صحفية صغيرة لدى الحكومة البريطانية يدل بوضوح على ان حقيقة «مهمة» جاكوب ورحلته الى صنعاء فى ١٩٢٣ قد اخفيت عمدا عن الرأى العام . فقد تداركوا حادثة رحلة جاكوب وتمكنت الدبلوماسية البريطانية من تفادى الفضيحة التى كانت تخشاها كثيرا .

والحال ظلت العلاقات بين بريطانيا والامام يحيى دون تسوية . وخلافا لجهود بريطانيا تزايد نفوذ امام الزيدية ، فى حين راحت دويلة الادارسة التى انشئت بمساعدة الانجليز كدولة حاجزة ، تتقوض كبيت من ورق .

وبالاضافة الى الخطر الخارجى المنبعث من الزيدية والوهابية (احتل جند ابن سعود فى عام ١٩٢٣ شمال عسير كله ، كما احتلوا فى عام ١٩٢٤ بعض مناطق جنوب عسير العائد للادارسة) نشب فى امارة الادارسة الصراع من اجل السلطة بين كبار حاكميها . وفى ربيع ١٩٢٤ اعلن مصطفى الادريسى الذى كان يسيطر على المناطق الجنوبية من امارة الادارسة ، بما فيها الحديدة ، عن استقلاله وشن حربا ضد ابن اخيه على الادريسى . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ تمكن على بمساعدة مماليكه من اخماد ذلك التمرد واستعاد مؤقتا سلطته

* NAI, File 427-N. Yemen affairs, 1926-27, encl. to No 41.
** "The Times", 19.8.1926.
*** NAI, File 427-N. Yemen affairs, 1926-27, No 41.

المتضعضعة فى جميع اراضى الامارة * . وبعد هذا الانتصار طرد الحاكم الشاب غير المحنك مستشارى ابيه السابقين وكل الشيوخ الذين لهم ضلع فى عصيان مصطفى الادريسى . وبذلك حرم نفسه من تأييد اكبر القبائل التى كان المطرودون يتمتعون فيها بنفوذ كبير . وحاول على ان يشترى ذمم شيوخ القبائل فانفق على ذلك كل اموال الخزينة وضيع بالتالى فرصة الاستفادة من «سلطة المال» فيما بعد .

وادت الازمة السياسية لدولة الادارسة الى اضعاف سلطتهم فى الساحل لدرجة كبيرة . وتهيأت للامام يحيى امكانية الاستيلاء على الحديدة وفك الحصار عن الجبل بدون عون من الانجليز . وفى عام ١٩٢٤ نشط جنده عملياتهم الحربية ضد الادارسة الذين يحتلون الساحل اليمنى . كان الامام يحيى فى السابق مشغولا باخماد عصيان قبائل الجبل اما الآن بعد قمع الحركات الانفصالية ، فقد تمكن من تخصيص قوات كبيرة لمكافحة الادارسة . وتقوت صلات الامام بايطاليا التى زودته بالسلاح ، واثار ذلك قلقا شديدا لدى الادارة فى عدن .

وفى ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٢٤ بعث المقيم البريطانى فى عدن الجنرال سكوت برقية مستعجلة الى لندن جاء فيها ان الامام «فى الوقت الحاضر يميل بوضوح الى التوجه صوب ايطاليا» . وافاد المقيم البريطانى «ان خط التلغراف افتتح بين الامام واريتريا وان حاكم اريتريا بعث الى الامام تهنئة من صميم القلب بهذه المناسبة» ** .

بديهى ان ارساليات الاسلحة والذخيرة الايطالية عززت قدرات جند الامام وساعدت بقدر ما على طرد الادارسة من الساحل اليمنى . الا ان السبب الاساسى لانتصار الزيدية هو انتقال القبائل الشافعية فى تهامة اليمن وبعض قبائل عسير الى صف الزيدية . وكان استئناف الشريان التجارى الاقتصادى التقليدى الذى قطعه الانجليز بصورة مفتعلة بين المنطقة الجبلية فى اليمن وساحل البحر الاحمر هو العامل الرئيسى الذى

* "The Times", 14.4.1925; Survey of international affairs, 1925, vol. 1, p. 322.

** NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 6.

خفف لدرجة كبيرة من النزاعات الطائفية القديمة بين الشافعية والزيدية .

وقطعت احدى قبائل تهامة مواصلات الادارسة التى تربط بين ابو عريش والحديدة ، وبذلك قدمت دعما نشيطا للامام يحيى . وفى الوقت ذاته تمردت على الادارسة قبيلة الشيخ مصطفى النعيمى . وكفت القبائل القريبة من الصبية ، عاصمة الادارسة ، عن تأييد على الادريسى ، وانتقل بعض قادة عساكره الى قوات الامام يحيى . ولم يبق على الولاء للادريسى الا حرسه المكون من المماليك * .

وانتهز الزيدية فرصة تقوض امارة الادارسة من الداخل فاستطاعوا فى عام ١٩٢٥ ان يطردوهم من قسم كبير من اراضى تهامة اليمن واحتلوا مراكز سكنية كبيرة ، بما فيها باجل التى اعتقلت فيها بعثة جاكوب عام ١٩١٩ . وفى بعض قطاعات الجبهة اخترقت الفصائل اليمنية الحصار ووصلت الى سواحل البحر ** . الا ان اتجاه الضربة الرئيسى تركز على الحديدة الهدف الاول لحرب الامام يحيى ضد الادارسة .

وفى ٢٧ اذار (مارس) ١٩٢٥ تم بلوغ هذا الهدف . واحتلت القوات اليمنية بقيادة الامير احمد نجل الامام يحيى مدينة الحديدة وبعد ذلك بقليل ، وبالتعاون مع قبائل تهامة ، طردت الادارسة من الساحل اليمنى وازاحتهم حتى مدينة ميدى *** . وعلى اثر احتلال الحديدة اتخذ الزيديون عدة تدابير لاستئناف التجارة الخارجية اليمنية باسرع ما يمكن . وبقرار من الامام يحيى خفضت الضرائب الجمركية على البضائع التصديرية من ١٠٪ الى ٢٪ ، وعلى البضائع المستوردة من ١٠٪ الى ٢ر٥٪ . ووعد الامام اهالى تهامة بتخفيض بعض الضرائب الاخرى التى ارتفعت كثيرا فى ظل حكم الادارسة **** .

وهكذا استولى اليمانيون الشماليون ، بدون معونة الانجليز ، على الحديدة المركز الحساس فى التجارة الخارجية

* "The Times", 10.3.1925.

** Survey of international affairs, 1925, vol. 1, p. 322.

*** NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 23.

**** Ibid.

اليمنية ، الامر الذى بدد نهائيا آمال الدبلوماسية البريطانية فى استخدام الحديدة «كورقة رابحة» فى المفاوضات بشأن اعتراف الامام يحيى بحدود ١٩٠٥ بين اليمن وعدن .

وفى الوقت ذاته اخذت الاوساط الاستعمارية البريطانية تفهم حتمية سقوط امارة الادارسة التى خلقوها بصورة مصطنعة . ولذا وزنت بريطانيا الامور بسلبياتها وايجابياتها وصممت على ترك حليفها الميئوس منه فى كف القدر .

ذلك هو مصير الدويلة المفتعلة التى ادت كل الوظائف التى كلفتها بها حليفتها الاكبر . ونعيد الى الاذهان كيف استخدمت ايطاليا الادارسة فى فترة الحرب العثمانية الايطالية ، وكيف تخلت عنهم فيما بعد . والآن ادركت بريطانيا حتمية هزيمة الادارسة فقررت الا تنفق الاموال عبثا على استعادة ما تتعذر استعادته .

وفى برقية بعثها وزير المستعمرات فى حكومة المحافظين الى المقيم البريطانى فى عدن فى السادس من نيسان (ابريل) ١٩٢٥ جاء فيها ان الحكومة البريطانية ترى ان اتفاقية ١٩١٥ مع الادريسى لم تعد سارية المفعول . وكتب الوزير يقول : «يتعين عليك ان تتمسك فقط بالمادة الرابعة من اتفاقية ١٩١٧ مع الادريسى» . وكان المفروض ان يجرى تبرير التخلى عن الادريسى بكون المادة الرابعة من الاتفاقية المذكورة تتضمن ارسال السلاح وتأمين الحماية دون الاعمال العدائية الصادرة عن دول اجنبية وليس عن حكام عرب مجاورين . واعلن وزير المستعمرات صراحة فى البرقية السرية الى المقيم البريطانى «ان الحكومة البريطانية لا تزود بالسلاح اولئك الذين ليست لديهم مكانة راسخة» * .

وسرعان ما ابلغ المقيم البريطانى ، عملا بتوجيهات لندن ، على الادريسى بان بريطانيا قررت ان تلتزم الحياد فى النزاع بين الادارسة والامام يحيى ** . وفى اواخر نيسان (ابريل) كلف سفيرا بريطانيا فى باريس وروما باشعار حكومتى فرنسا

* NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, No 40.

** Ibid., No 53.

وايطاليا بحياد بريطانيا فى «النزاع اليمنى الداخلى» ودعوتهما الى التزام مثل هذا الموقف اذا حاول الامام يحيى او الادريسى الحصول على السلاح من احدى هاتين الدولتين * . وفى ايار (مايو) ١٩٢٥ اقترحت بريطانيا على هذين البلدين توقيع اتفاقية بشأن حظر ارسال السلاح الى اليمن وعسير ، وبعد ضغوط معينة قبلت حكومات ايطاليا وفرنسا وبلجيكا هذا الاقتراح . واوضحت السلطات الاستعمارية البريطانية بواعث هذا الحظر انطلاقا من الرغبة فى «تضييق نطاق العمليات الحربية بين الامام يحيى والادريسى» حقنا للدماء ** . الا ان الانجليز فى الواقع كانوا يسعون الى الحيلولة دون تقوية الامام يحيى وحرمان الدول الاخرى فى الوقت ذاته من اية فرصة للتدخل فى شبه الجزيرة العربية .

فى عام ١٩٢٥ نشأ موقف متماثل تقريبا فى اليمن والحجاز ، فهنا وهناك كانت الابادة التامة تهدد حلفاء بريطانيا (الادارسة فى اليمن والهاشميين فى الحجاز) . ففى الحجاز كانت نتائج المرحلة الاولى من حرب ابن سعود ضد الملك حسين الذى اعلن عن نفسه ، خلافا لرغبة بريطانيا ، ملكا وخليفة للعرب ، ترضى المستعمرين البريطانيين تماما . فقد ازيح الملك حسين المتشدد وحل محله ابنه على الذى لم يتجرأ على انتهاج خط ابيه العربى والاسلامى الجامع . الا ان تقوية نجد فيما بعد وخطر التهديد التام الذى ظهر فى عام ١٩٢٥ لاحتواء الحجاز بالكامل كان من شأنهما ان يحبطا المخططات البريطانية لتجزئة الجزيرة العربية الى دويلات صغيرة . ولذا جهد المستعمرون البريطانيون بمختلف الوسائل ، ومنها حظر ارسال السلاح الى الحكام العرب ، للحيلولة دون تدخل الدول الغربية الاخرى فى النزاعات فى الجزيرة العربية .

الا ان آمال الدبلوماسية البريطانية فى الاتفاقية بشأن حظر ارسال السلاح لم تتحقق . فمع ان ايطاليا وقعت هذه الاتفاقية فقد ظلت تزود اليمانيين بالاسلحة وتطبق بالتالى سياستها

* Ibid., No 46, 46a.

** NAI, File 427-N. Yemen affairs, 1926-27, No 15, encl. 1.

الرامية الى جر اليمن الى فلك نفوذها .

وكان الامام يحيى ، وهو سياسى ذكى بعيد النظر ، قد استفاد بمهارة من ازمة امارة الادارسة ومن رغبة ايطاليا فى «التعاون» معه مدركا ان هذه الرغبة ليست نزيهة بالطبع .

كان برنامج الحد الادنى بالنسبة للامام يحيى فى عام ١٩٢٥ قد طبق فى الواقع . فقد تمت تصفية الانعزال عن البحر وتوحد شمال اليمن كله تقريبا تحت سلطته . الا ان اراضى اليمن الجنوبى ظلت تحت الحماية البريطانية ، كما ظل جنوب عسير تحت سيطرة الادارسة . وكان النضال من اجل هذه الاراضى بزعامة الزيدية قد حدد سير الاحداث اللاحقة فى جنوب شبه جزيرة العرب .

فى كانون الثانى (يناير) ١٩٢٥ استأنفت القوات اليمانية زحفها فى اعماق محمية عدن واحتلت مساحات شاسعة من اراضى اتحاد قبائل العودلى * . وفى بداية حزيران (يونيو) ١٩٢٥ احتلت فصائل الامام بدعم من قبيلة الفضلى كل اراضى العودلى .

وفى ٤ حزيران ١٩٢٥ اخبر المقيم البريطانى الجديد فى عدن الجنرال كيس ستيوارت وزير المستعمرات بان الزيديين احتلوا كل المناطق الجبلية الداخلية شمال شرقى عدن ، ما عدا اراضى يافع والعوالق ** .

واثار ذلك بخاصة قلق الادارة فى عدن . فالزيديون فى السابق كانوا يقتحمون المناطق الحدودية فى محمية عدن ، لكن احتلال العودلى الآن ، كما جاء فى التقرير الذى بعثه الجنرال ستيوارت ونائبه الميجر ريلى الى لندن ، يفتح امام الزيديين طريق حضرموت ومنطقة قبيلة الفضلى المتاخمة مباشرة لمستعمرة عدن . وقد وصل جند الامام يحيى الى نقطة تبعد ٤٠ ميلا عن ساحل خليج عدن ، وهذا ينطوى على خطر بتر الجزء الشرقى كله من المحمية عن عدن . وبغية ازالة هذا الخطر اقترحت الادارة العدنية استخدام طائرات حامية عدن من جديد ضد اليمانيين مثلما فى عام ١٩٢٢ . وكان من المرتأى ان يقترن القصف الجوى

* NAI, File 186-N. Yemen affairs, 1924-25, encl. to No 63.

** Ibid., No 61.

بعمليات برية تقوم بها العساكر اليمنية الجنوبية الموالية للادارة فى عدن * . وبعد النظر فى اقتراح ستيوارت وريلى وافقت لندن فى ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٢٥ على شن الغارات الجوية ** . وفى تموز – آب (يوليو – اغسطس) ١٩٢٥ قصفت الطائرات البريطانية بانتظام الفصائل الامامية لجند الامام يحيى فى اراضى العودلى ، بما فيها بلدة لودر . وشنت سبع غارات شاركت طائرتان فى خمس منها وثلاث طائرات فى غارتين منها . والقى اكثر من ٦٠ قنبلة واطلق حوالى ٢٠٠٠ رصاصة . وبنتيجة القصف قتل حوالى مائة من اليمانيين *** . فى بادئ الامر اثار القصف الرعب بين جند الامام الذين فروا مذعورين . وانتهزت الوحدات العشائرية التى شكلتها سلطات عدن هذه الفرصة فاحتلت القرى التى تركها الزيديون . ولكنه سرعان ما اتضح ان سلاح الجو فى حامية عدن ، وهو مكون من بضع طائرات ضعيفة قصيرة المدى ، عاجز عن تأمين تغطية جوية فعالة . وادى سوء الطقس والعطل المتكرر فى الطائرات العتيقة الى فرار الوحدات الموالية لبريطانيا من القرى التى احتلتها بعد ان ظلت لوحدها فى مواجهة جند الامام يحيى **** .

وفى ٥ آب (اغسطس) ١٩٢٥ كتب المقيم البريطانى فى عدن الجنرال ستيوارت فى تقرير سرى الى وزير المستعمرات امرى يقول «لقد مر ذلك الزمان الذى كان فيه الامام يستطيع ان يتخلى عن ادعاءاته فى المحمية مقابل وعد بمساعدته فى طرد الادريسى من الحديدة . فالآن ، حيث استولى الامام على الحديدة بدون مساعدة بريطانيا واقام علاقات ودية مع دولة اوربية (ايطاليا) ، لن يتخلى عن ادعاءاته . . . وقد اشار الى ذلك بوضوح قولا وفعلا . ففى سياق المفاوضات الطويلة مع سلطات عدن لم يعترف بحقوق بريطانيا فى المحمية . ولم يفوت ادنى فرصة فى الوقت ذاته ليحتل اراضى المحمية عندما يشعر بانه

* Ibid., No 63.

** Ibid., No 69-71.

*** Ibid., No 110.

**** Ibid., No 116.

يتمتع بقوة كافية . وقد حاول المقيم البريطانى فى عدن سابقا (الجنرال سكوت) ان يطبق بالطرق الدبلوماسية سياسة حكومة صاحب الجلالة الرامية الى استئناف حدود المحمية السابقة . ولم يستخدم القوة (سلاح الجو) الا مرة واحدة فى عام ١٩٢٢ . . . وتبين الممارسة ان الدبلوماسية وحدها غير كافية لبعث حدود المحمية . ولذا يغدو استخدام القوة محتما ان آجلا او عاجلا» * .

واشار المقيم البريطانى فى تقريره الى ان الطائرات الموجودة فى عدن من طراز «بريستول» ضعيفة قصيرة المدى ولذا فلا يرجى خير من استعمالها . واقترح ستيوارت استبدال هذه الطائرات بسرب من قاذفات القنابل الحديثة التى تسهل كثيرا ، فى رأيه ، مهمة شن العمليات ضد جند الامام يحيى ** .

ووافقت وزارة المستعمرات على تعزيز حامية عدن بسرب من قاذفات القنابل *** . وايدت وزارة الحربية البريطانية كذلك اقتراح المقيم البريطانى . فقد جاء فى برقية سرية بعثتها وزارة الحربية الى وزارة المستعمرات فى ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٥ «ان العمليات الجوية فى مثل هذه الحالة هى الوسيلة الارخص والاكثر فعالية المتوفرة لدينا» **** . واوصت وزارة الحربية بالاستمرار فى تزويد قبائل جنوب اليمن الموالية لبريطانيا بالسلاح والعتاد واستخدامها فى العمليات الحربية ضد اليمانيين الشماليين .

ورغم موافقة وزارة المستعمرات ووزارة الحربية على تعزيز سلاح الجو فى حامية عدن اوصت وزارة الخارجية البريطانية (شمبرلين) فى رسالة توجيهية مؤرخة فى ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٥ بالاستفادة حتى النهاية من امكانيات المفاوضات قبل شن الحرب على الامام .

واوضحت الرسالة هذا الموقف الحذر على النحو التالى :
«بعد افول سلطة الملك حسين والادريسى غدا الامام يحيى الحاكم

* Ibid., No 28.
** Ibid.
*** Ibid., No 92.
**** Ibid., No 99.

الثانى فى الجزيرة العربية بعد ابن سعود . ومعروف انه اقام اتصالات وثقى مع الطليان ولذا يجب تقوية تأثير بريطانيا عليه عن طريق اضعاف تأثير ايطاليا . واذا شنت حكومة صاحب الجلالة عمليات حربية سافرة ضد الامام فستجعله يشيح بوجهه عن بريطانيا ويقوى صلاته مع ايطاليا بقدر اكبر . وان تدخل ايطاليا فى شؤون الجزيرة العربية ، برأى الوزير شمبرلين ، امر غير محمود اطلاقا ، ولهذا السبب وحده يعترض الوزير شمبرلين على تعزيز حامية عدن بسرب من قاذفات القنابل المخصصة لشن الحرب على الامام ، ويرى ان من الضرورى ابداء اقصى حد من التأنى والصبر فى العلاقات مع هذا الحاكم . ويرى وزير الخارجية شمبرلين بانه لا يجوز القيام باية عمليات بل لا يجوز حتى التحضير لاية عمليات ضد الامام بدون توصية شخصية من الوزير امرى وموافقة من مجلس الوزراء» * .

ان السبب الرئيسى لتخلى لندن مؤقتا عن استخدام القوة ضد الامام يحيى هو عدم رغبة بريطانيا فى الدخول فى نزاع مع ايطاليا عشية انعقاد المؤتمر الدولى الذى كان مقررا ان يفتتح فى لوكارنو فى الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٥ . وكان الانجليز ينوون فى هذا المؤتمر جر ايطاليا الى تحالف الدول الغربية المناهض للسوفييت ، حيث اقترحوا عليها ان تغدو ، الى جانب بريطانيا ، الضامن الثانى لحلف الراين الموجه ضد الاتحاد السوفييتى . وهكذا كانت سياسة بريطانيا فى اوربا متشابكة تشابكا وثيقا مع سياستها فى الشرق الاوسط .
وفى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٥ اتصل وزير المستعمرات امرى بالمقيم البريطانى فى عدن واخبره بان «حكومة صاحب الجلالة ترى من الضرورى الاستمرار حتى النهاية فى امكانيات المفاوضات قبل شن الحرب على الامام» ** .

وانطلاقا من هذا التوجيه ردت الادارة فى عدن بالموافقة على اقتراح الامام يحيى بشأن ارسال ممثل عن بريطانيا الى صنعاء للتفاوض حول توقيع اتفاقية انكلويمنية . ومع ان

* Ibid., No 108, encl. to No 2.
** Ibid.